جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1
كلية الآداب واللغات
قسم الآداب واللغة العربية

دروس تطبيقية في مادة: بنية النص النثري القديم.

الأستـــاذ: د/عبد العزيز نقبيل
المقيـــاس: بنية النص النثري القديم.
السنـــــة: الأولى ماستر.
التخصص: أدب قديم
النـــــوع: محاضرة
الفـــوج: 3أ-3ب-4أ-4ب

السنة الجامعية: 2020-2021

المحاضرة الأولى: نشأة النثر العربي القديم:

1- مفهوم النثر:

لو نرجع إلى المعاجم العربية نجد لكلمة نثر معان متعددة منها ما يذهب إليه الزمخشري في أساس البلاغة" نثرت المرأة بطنها، ونثرت الشاة نثيرا، عطست وأخرجت من أنفها الأذى، والنثار والنثارة بمعنى النثر، وهو الفتات المتناثر حول الخوان"[1] وجاء في لسان العرب لابن منظور قوله: "النثر نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر. وكذلك نثر الحب إذا بُذر"[2] أما في القاموس المحيط للفيروز آبادي يقول: "نثر الشيء، وينثره نثرا ونثارا: رماه متفرقا"[3]. ومن المعاني أيضا ما جاء في كتاب العين "امرأة نثور، كثيرة الولد"[4] .

من قراءة النصوص المعجمية السابقة نرى اتفاق المعاجم اللغوية حول أصل(نثر) الذي يقوم على التفرقة والتوزع؛ أي أن الشئ كان مجتمعا ثم تفرق وتبعثر دون نظام يحكمه أن كلمة نثر تحمل دلالة الشيء المبعثر والمتفرق، وهي قريبة من صفة النثر في الكلام الذي يقابله النظم، وبالتالي النثر من الناحية اللغوية هو الكلام الذي لا يحكمه نظام ولا وزن، ثم تطورت دلالته وأصبحت مقصورة على الكلام الأدبي الفني.

نستنتج أن المعنى اللغوي يقصد الشيء المبعثر الذي يرمى دون نظام أو قصد، أو أي أساس في التفرقة.

لو نظرنا في هذا المصطلح(نثر) لوجدناه مستعملا في كتب القدماء ومصنفاتهم، فبشر بن المعتمر(210هـ) يسمي النثر في صحيفته البلاغية التي رواها الجاحظ(255هـ) بصناعة الكلام[5] ويتحدث ابن المعتز(296هـ) عن بعض المحسنات البديعية في الكلام والشعر، كما يستعمل مصطلح الكلام البديع في مقابل الشعر البديع[6] ونجد عند الآمدي(371هـ) الكلام في مقابل الشعر "ومثل هذا في الشعر والكلام كثير مستعمل"[7] وهناك بعض النقاد يستعملون المصطلح بلفظه وفق نظرة شاملة للكلام الذي يشمل

1-الزمخشري محمود بن عمر جار الله: أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، لبنان، مادة(نثر)، ص446.

2-ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين):لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1992، مادة(نثر).

3-الفيروز آبادي محمد بن يعقوب مجد الدين: القاموس المحيط،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1999،1،ج2،مادة(نثر)، ص229.

4- الفراهيدي الخليل بن احمد :معجم العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مج4، ص188.

5-ينظر: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل،بيروت، لبنان،ط1998،7، ص139.

6-ابن المعتز: كتاب البديع، تحقيق عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 2001 ، ص11.

7-الآمدي: أبو القاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، ط3، 1953، ص244 .

الشعر والنثر، ففي كتاب الوساطة للقاضي الجرجاني(366هـ) يتكرر قوله: "كذلك الكلام منظومه ومنثوره"[1] ويقول مسكويه(421هـ) "إن النظم والنثر نوعان قسيمان تحت الكلام والكلام جنس لهما"[2] فالقدامى يطلقون على المصطلح كلمات كثيرة منها: الكلام، والكتابة، والمنثور، وهي كلمات متباينة من حيث مضمونها ودلالتها. فالمنثور الذي هو كلام ليس فيه وزن أو قافية، يخالف المنظوم ويباينه، لأن كل واحد منهما يشكل فنا قائما بذاته، وهو"على ضربين:

أما الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب. وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها مهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد ببحثه ودرسه وبيان ما مرّ به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص، وهو الكلام الذي يحتفل صاحبه بالصياغة وجمال الأداء ويتفرع إلى الخطابة والكتابة الفنية"[3].

فالكلام المنثور يتخذ عدة أشكال، ويتحكم في تطوره عدة عوامل، تبعا للأحوال والمقامات، وهناك تباين بين أنواعه، سواء من حيث القيمة أو التداول، وأشهره الخطابة والكتابة الفنية(النثر الفني).

ويذهب بروكلمان إلى أن النثر هو فن التأثير بالكلام المتخير الحسن الصياغة والتأليف في أفكار الناس وعزائمهم [4] ويرى عمر فروخ أن النثر هو الكلام الذي يجري على السليقة من غير التزام وزن، وقد يدخل فيه السجع والموازنة والتكلف[5]. وعند طه حسين هو ذلك الكلام الذي يعنى به صاحبه عناية خاصة ويتكلفه تكلفا خاصا، ويحاول أن يؤثر به في نفسك[6].

2- نشأة النثر الفني عبر العصور:

يجد الدارس صعوبة إذا ما حاول معرفة الفترة التي نشأ فيها النثر العربي، ذلك أن معظم الباحثين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة دراسة الأدب الجاهلي، لم يصلوا إلى رأي واحد يمكن أن يعتمد عليه الباحث، لأسباب منها قلة التدوين، وشيوع الأمية ومعظم ما روي عن أدبنا القديم جاء عن طريق المشافهة

1-الجرجاني علي بن عبد العزيز القاضي: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط4، 1966، ص412.

2-التوحيدي أبو حيان ومسكويه أحمد بن محمد: الهوامل والشوامل، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر، 1951، ص309.

3- شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 2، د.ت، ص15.

4- ينظر: بروكلمان كارل: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص129.

5- ينظر: عمر فروخ تاريخ الأدب العربي من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ص44.

6- ينظر: طه حسين: في الأدب الجاهلي، ص328.

والرواية، إضافة إلى ذلك، فان الحديث عن هذا الجنس يرد –غالبا– في إطار مقارنته بالشعر، ومناقشة مسألة الأسبقية والأفضلية، وهو ما يتمخض عنه على الأعم اعتباره جنسا أو فرعا أقل مرتبة من الشعر، أو أدنى منه تأثيرا في نفوس السامعين "إن التنازع بين الشعر والنثر مرّ بمرحلتين هما: مرحلة الصراع الوجودي بين الشعر والنثر، حيث دارت أهم المناقشات حول أسبقية كل منهما (الأصل،الفرع)، تميزت المرحلة الثانية ببروز الوعي النقدي للجمع بين الشعر والنثر، في ظل مفهوم جديد هو ما اصطلح عليه عند بعض النقاد بمصطلح الكتابة، لهذا فان النظر إلى الشعر والنثر باعتبارهما ثنائية يحكمها التضاد أو التنازع مسألة لا تزال تطرح بشكل مغلوط...من هنا كان الموقف السليم يتمثل في معالجة قضية تنازع الشعر والنثر في إطارها الطبيعي وهو مسألة الأجناس الأدبية من حيث ظهورها وتطورها وتداخلها وتفاعلها واندثارها"[1].

أ– نشأة النثر الفني في العصر الجاهلي. مواقف وآراء:

اختلفت آراء الباحثين وتعددت حول نشأة النثر عند العرب في العصر الجاهلي، ذلك أن العرب شأنهم شأن غيرهم من الأمم الأخرى،كانت لهم حياتهم السياسية، والاجتماعية، والدينية، والعقلية، والتي تدل على طبيعتهم، وهو ما يذهب إليه زكي مبارك في قوله: "إن الجاهليين لابد وأن يكونوا قد بلغوا في ذلك المضمار شأوا لا يقل عما وصل إليه الفرس واليونان في ذلك الوقت، بل إنهم في إنتاجهم الأدبي في النثر لم يكونوا متأثرين تأثرا كبيرا بدولة أخرى مجاورة أو غير مجاورة، وإنما كانت لهم في كثير من الأحيان أصالتهم وذاتيتهم واستقلالهم الأدبي الذي تقتضيه بيئتهم المستقلة، وحياتهم التي كانت أقرب إلى الانعزال.

وإذا كانت الظروف المختلفة لم تساعد على بقاء هذا التراث من النثر الجاهلي، فليس معنى ذلك أن نهدره ونحكم بعدم وجوده، وإنما يجب أن نتلمسه في مصادر أخرى. ونحن إن فعلنا هذا فسوف نجد بين أيدينا حجة لا تنكر، ودليلا لا يجحد على أن ثمة نثرا جاهليا، ألا وهو القرآن الكريم... تأكد لنا أن العرب الجاهليين قد عرفوا النثر الفني، وأن القرآن الكريم يمكن أن يعطينا صورة –ولو تقريبية– عن شكل هذا النثر، ومنهجه، وحالته"[2].

وما يواجه الباحث في النثر الجاهلي هو قضية الشك في صحة النصوص التي وصلت إلينا من ذلك العصر، فكما شك بعض المستشرقين في صحة الشعر الجاهلي، شك بعضهم أيضا في النثر الجاهلي، ومنهم المستشرق الفرنسي (المسيو مرسيه) الذي نفى وجود نثر فني جاهلي، ودليله في ذلك أن العرب في جاهليتهم كانوا يعيشون حياة أولية (بدائية) والحياة الجاهلية لا توجب النثر الفني لأنه لغة العقل، وقد تسمح بالشعر لأنه أقرب إلى لغة لخيال[3].

1– ينظر: فاطمة سلامة: إشكالات النثر العربي القديم وخصائصه في الموقع الالكتروني: www.dr-aysha.com

2– ينظر: زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ص51.

3–ينظر: زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ص35،36.

ولا يتصور طه حسين أن هذا النثر الفني المحكم الرصين، كان موجودا في العصر الجاهلي، فهو يرفض ما نسب إلى الجاهليين من نثر مع إقراره بمعرفتهم للنثر وإلمامهم به، لكنه يذهب إلى أن نثرهم لم يصل إلينا بطريقة علمية مرجحة، فهو يرفض الخطب، وسجع الكهان، والحكم، والوصايا ويرى أنها من صنع العصور الإسلامية التي نحلت فيها، وأكثرها إنما نحل في القرن الثاني والثالث الهجري لنفس الأسباب التي حملت على نحل الشعر من سياسة ودين وشعوبية، وتكثر في الرواية[1].

أما زكي مبارك فقد أنكر زعم المستشرق (مرسيه) القائل بأولية الشعر عند العرب في الجاهلية، وعدم وجود نثر قديم لديهم وأكد: "أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طباعهم، لكنه ضاع لأسباب منها: قلة التدوين، وشيوع الأمية، ومضى إلى الحكم على خطبة قُسّ بن ساعده الإيادي التي قالها في سوق عكاظ بأنها موضوعة، وقال: إنها وضعت لإيهام الجمهور بان نبوة- محمد صلى الله عليه وسلم- كانت مما يجري على السنة الخطباء الموفقين من أصحاب الحكمة في عهد الجاهلية[2]

ويقف شوقي ضيف موقفا وسطا بين الرأيين من خلال قوله: "نحن لا نغلو هذا الغلو الذي جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية أو النثر الفني منذ العصر الجاهلي، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن، والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف مرحلة وسطى بين الرأيين، فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر الجاهلي، بل نضعها في مكانها الصحيح الذي تؤيده المستندات والوثائق، وهو العصر الإسلامي"[3].

ويأتي موقف إحسان النص أكثر اعتدالا بالنظر إلى المواقف السابقة من خلال قوله: "إننا إذا لم نغال ورجحنا صحة طائفة من الخطب التي انتهت إلينا نجد أنها قليلة لا تكفي وحدها لتحديد معالم الخطابة الجاهلية والإبانة عن خصائصها، إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نقف على كثير من مميزات الخطابة بالرجوع إلى الخطب التي يرجح انتحالها لأنها صورة من الخطابة الجاهلية، والذين انتحلوها راعوا محاكاة صورة صادقة عن النثر الجاهلي وخصائصه...ومن خطب الوفود التي قدمت على رسول-الله صلى الله عليه وسلم-نستطيع أن نستخلص كثيرا من خصائص الخطابة، وأخيرا نجد القران الكريم يعكس لنا جانبا من خصائص النثر الجاهلي، وهو أول نموذج للنثر الأدبي نستطيع أن نطمئن إلى صحته كل الاطمئنان[4].

1- ينظر: طه حسين: في الأدب الجاهلي، ص329.

2- ينظر: زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ص36.

3- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص104.

4- ينظر: إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ص7.

لكن في خضم هذه الآراء لا يمكن أن ننكر أن العرب قبل الإسلام قد عاشوا نهضة أدبية، وكانوا أصحاب بيان وفصاحة تدل على رقي تفكيرهم العقلي والديني والأدبي، كغيرهم من الأمم القديمة، وأن الإسلام قد جاء نتيجة لتفاعلات هائلة كانت تضظرب بها الجزيرة العربية، وأتى مجملا لخلاصتها، والتشكيك في النصوص الجاهلية لا يمكن أن يكون حكما عاما نطلقه على كل النصوص النثرية التي انتهت إلينا من هذا العصر. وأن المحققين والدارسين للتراث الأدبي العربي ذكروا بعض أنواع النثر العربي في تلك الفترة منها: الخطابة، والقصة، والحكم والمثال، والوصايا، وسجع الكهان...

-خصائص النثر في العصر الجاهلي:

كان العرب مضرب المثل في بلاغة القول وفصاحة اللسان، فقد أبدعوا في فنون القول شعرا ونثرا، لكن ما وصل إلينا قليل، لأن شيوع الأمية، وقلة حيلتهم بالتدوين قد حالت دون توثيق الخطب والأمثال والحكم والوصايا بعكس ما انتهى إلينا من الشعر باعتباره أسهل حفظا ونقلا ورواية.

كانت الخطابة ذات شأن عظيم عند الجاهلين لتوفر دواعيها من حروب، ومصالحات، ومصاهرات، فكل ذلك يحتاج إلى الخطباء، وكان حرص القبيلة واضحا في أن يكون لها خطيبا يتكلم بلسانها، فكانت خطبهم تميل إلى الإيجاز وتنحو منحى الحكمة، وتعتمد على إثارة المشاعر في النفوس، واضحة الأفكار، معبرة عن الغرض المقصود تعبيرا واضحا صريحا، تتخللها الأمثلة وأحيانا أبيات من الشعر، وتأتي معانيها مقتضبة ومفككة في شكل خطرات، لا تتصل اتصالا مترابطا. وكانت العرب تختار الخطيب الجهير الصوت، السليم المنطق، القوي الشخصية، ومن أمثلة ذلك: قس بن ساعدة، وهانئ بن مسعود، وهاشم بن عبد مناف...

وأمثالهم تجري على السنة الناس جميعا ولا تختص بها طبقة دون أخرى، ولذلك أُثِرت عنهم الأمثال عامة، ومن خصائصها: اللفظ الموجز، والعبارة الجميلة، وتصوير البيئة تصويرا دقيقا مع دقة التشبيه.

والوصايا لديهم ذائعة الصيت وليدة الخبرات والتجارب، تصدر عن شيخ محنك خبير بالأيام، أو من حاكم مجرب، أو من أم راجح عقلها، لها مكانتها العالية.

-النثر في العصر الإسلامي:

لقد أحدث الإسلام انقلابا جذريا في حياة الناس، وأثر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف تأثيرا بالغا في اللغة والأدب العربيين عامة، والنثر العربي بخاصة، فقد "دخل النثر العربي في طور جديد بظهور الإسلام، بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل. ولم يكن ثمة بد من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة

وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها، وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر، لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطى سابقيه، ويلتزم أصولا محددة"[1].

كما أن أغراضه قد تنوعت أيضا، وتلون النثر بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة، وكتابة، ورسائل وعهودا، وقصصا، ومناظرات، وتوقيعات...

-النثر في العصر الأموي:

تطورت الكتابة في العصر الأموي تطورا واسعا، وعرف العرب فكرة الكتاب بعدما أخذت ظاهرة التدوين إلى الانتشار بفضل المثاقفة والاحتكاك، وكانت الكتابة ضرورة إدارية فرضتها إدارة شؤون الدولة الجديدة، وتطور الجانب الإداري، فتطورت المكاتبات والدواوين المختلفة.كما كانت ضرورة اجتماعية لا غنى عنها في المعاملات. وكذلك كانت ضرورة علمية لا غنى عنها في الحركة العلمية التي ازدهرت في العصر الأموي وتعاظمت في أواخره. ونتيجة لذلك كله توسع انتشار الخط واستعمال الكتابة، إبان ذلك العصر توسعا عظيما، نظرا لإقبال الناس على عليه.

وكانت الحاجة إلى استخدام الكتابة واضحة في العصور الإسلامية بعد تأسيس الدولة الإسلامية، وظهر بصفة بارزة في عهد الخلفاء الراشدين، وخاصة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- لكثرة الفتوحات، وما ترتب عنها من ترتيب وتنظيم شؤون الدولة، فاتخذ ديوانا للجيش، واتبع الخلفاء من بعده سنته.

وفي العصر الأموي زاد معاوية بن أبي سفيان في تنظيم الدولة، وأحدث ديواني الخراج والرسائل، هذا الفن الأخير الذي أخذ ينمو ويتطور ويرتقي، لعدة أسباب، ولعل من أهمها حاجة الدولة إليه، لتدبير شؤون البلاد والعباد، وقد تجلت بواكير الكتابة في هذا النوع بفضل جماعة من الكتاب الذين ترأسوا هذا الديوان،كان على رأسهم عبد الحميد بن يحي الكاتب، الذي أثر بفضل موهبته تأثيرا كبيرا في تطور الكتابة، حتى وصف بأنه" أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم، وقد ضربت ببلاغته الأمثال"[2] وقيل "عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل[3]".

-النثر في العصر العباسي:

أصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع، فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي، والنثر الأدبي الخالص، وكان في بعض صوره امتدادا للقديم، وكان في بعضها الآخر مبتكرا وتعددت

1- عمر الدقاق: مواكب الأدب العربي عبر العصور، دار طلاس، دمشق، سورية، ط1، 1988، ص77.

2- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص114.

3- ابن النديم محمد بن إسحاق: الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان ،د.ط، د.ت، ص170.

أغراضه من مدح، وهجاء، ورثاء، واعتذار، تهنئة، وتعزية، واستعطاف، ووصف، ونسيب، كما أصبح متعدد الفروع، وظهرت أنواع كثيرة من النثر كالنثر العلمي، والنثر الفلسفي، والنثر التاريخي، والنثر الأدبي الخالص[1]. ويأتي هذا التطور لأسباب كثيرة نذكر منها[2]:

- الاستقرار السياسي في الدولة واتساع العمران، وما يتبع ذلك من رخاء.
- النضج العقلي وظهور آثار التقدم الفكري في الدولة.
- ظهور أجيال جديدة من المثقفين من أبناء الأمم المستعربة الذين جمعوا إلى الثقافة العربية الأصيلة فنونا جديدة من ثقافات آبائهم الفرس، الهنود، واليونان.
- تشجيع الخلفاء والأمراء للكتاب وإغداق الأموال عليهم.
- وصول الكتاب إلى المناصب الكبيرة جعل الكتابة مطمح كل راغب في الجاه والسلطان.
- التنافس بين الكتاب في سبيل الإجادة الفنية.
- كثرة المذاهب الكلامية وحاجة كل مذهب إلى التأييد وشرح مبادئه.

ومن مظاهر نهضته نذكر:

- تنوع فنونه وأغراضه، فقد تناول كل مجالات الحياة واستخدمته الدولة في الشؤون السياسية والاجتماعية والثقافية. وصول الكتاب إلى المناصب الوزارية. أصبح وعاء لثقافات جديدة،كانت نتيجة لامتزاج الفكر العربي بأفكار الأمم الأخرى. رقي الأفكار وعمق المعاني. التفنن في أساليبه وظهور مدارس متنوعة.

بلغ النثر في هذا العصر تطورا ملحوظا، واستجاب لمتطلباته، فقد تغيرت معانيه وألفاظه وأغراضه بظهور الإسلام، فاكتسب معان وقيم روحية جديدة، وتعمقت معانيه وأساليبه، ولما ازدهرت الكتابة والخط بصفة عامة في العصر الأموي، أصبح النثر ذا شأن عظيم، إذ نما وازدهر، وتحرر من قيود تفاعلاته مع الأمم الأخرى، واستقل بنفسه ، فأصبح نثرا عربيا خالصا.

1-ينظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص125.

2- محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، دار الجيل،بيروت،د.ط،1990، ص312.

المحاضرة الثانية: الأشكال النثرية قبل الإسلام.الأمثال والحكم والوصايا.

1-الأمثال:

للعرب قبل الإسلام قدرة واسعة على ضرب الأمثال في مختلف المناسبات، وهذا دليل على صفاء أذهانهم، وكثرة إبداعهم، والأمثال التي وصلت إلينا هي صورة عن حياة العرب الاجتماعية والثقافية، ومرآة صادقة لخيالهم البديع، وأمثالهم مفعمة بالروعة والجمال، تجمع بين الإيجاز وإتقان التشبيه وإصابة المعنى.

والمثل في اللغة يطلق على الشيء الذي يضرب لشيء فيجعله مثله، والمثل الشبه، يقال تَمَثَّلَ فلان:ضرب مَثَلاً، وتَمَثَّل بالشيء، ضرب مَثَلاً، والمِثْلُ،كالمِثَلِ، والجمع أَمْثَالٌ، قال الله تعالى: "وَلِلَّهِ اَلْمَثَلُ اَلْأَعْلَى"(النحل،60) والمثل الأعلى في هذه الآية التوحيد الخالص والصفات الإلهية العليا التي لا ينازعه فيها أحد، والمِثْلُ بكسر الميم الشَّبَهُ، يقال مِثْل ومَثِيْلٌ وشَبِيْهٌ بمعنى واحد،كما ورد في قوله تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ السَّمِيْعُ اَلْبَصِيْرُ" (الشورى،11) أراد ليس كذاته شيء، فالنفي المطلق، يؤكد على حقيقة وحدانيته وبتنزهه عن النظير والمثيل جل وعلا[1] .

وقيل: إنما سمي مثلا؛ لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبدا، يتأسى به، ويعظ به، ويأمر به، ويزجر به، ومن ثم فهو أبلغ من الحكمة؛ لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة، أو غير مبالغ في بلوغ المدى[2] .

والمثل من الناحية الاصطلاحية قسم من الحكم، يرد في واقعه لمناسبة اقتضت وروده فيها، ثم يتداوله الناس في غير واحد من الوقائع التي تشابهها، دون أدنى تغيير لما فيه من وجازة وغرابة ودقة في التصوير، واعتبر المرزوقي أن المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول. فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها، من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها[2].

والأمثال "هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم ونطق بها في كل زمان وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها حتى قيل أسْيَرُ من مثل"[3] والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره نحو قولهم: (الصيفَ ضيعتِ اللبن)، والمثل في الأصل بمعنى النظير، ثم نقل منه

1-ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة(مثل).

2-ينظر: طلال حرب: أولية النص(نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي)،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ،ط1،1999،ص145.

3-ابن عبد ربه. أحمد بن محمد: العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط،1982،ص63.

إلى القول السائر، أي الفاشي الممثل بمضربه، ومورده، والمراد بالمورد: الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام، وبالمضرب الحالة المشبهة بها التي أريدت بالكلام، والأمثال ضرب من الحكم، والقول الجيد الذي يمتاز بالصياغة المحكمة، والإيجاز الشديد، وشيء من المبادهة حيث تبده السامع بما يثيره، أو يفسر له مسلكا، أو موقفا من المواقف التي يتعرض لها[1].

والمثل جنس من الأجناس النثرية يمتاز بإيجاز اللفظ، وحسن المعنى، ولطف التشبيه، وجودة الكناية، ولا تكاد تخلو منه أمة من الأمم. ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب.

الخصائص الفنية للأمثال:

تجتمع في المثل أربعة خصائص لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة[2]. ويلاحظ أن المثل يتميز بخصائص أهمها: الشيوع والانتشار، الخبرة، البلاغة، الإيجاز، الإيقاع[3] يستخدم المثل الألفاظ المعبرة عن واقع الحياة المعاشة، بحيث تتم المشاكلة بين اللفظ والمعنى، والمشاكلة تمنحها المعاني الخليقة بها والموحية بطريقة المنشئ أو القائل في تعبيره عن تجربته أو معاناته أو معرفته، ومن ثم تتعدد أشكال التعبير وتتنوع ضروب التصوير أو التفكير، وتتباين صيغ التراكيب.

تتنوع تراكيب المثل بين الطول والقصر، والإنشاء والخبر، والإرسال والتوقيع والتسلسل والانقطاع، والإيجاز والتكرار، وبربط النتيجة بالمقدمة.

وكان العرب ينسبون الكثير من الأمثال لأصحابها ومبدعيها، فمن حكماء العرب عدد كبير اشتهر بابتكاره الأمثال، يقول الجاحظ: "ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيفي وربيعة بن حُذار وهَرِم بن قُطبة وعامر بن الضرب ولَبيد بن ربيعة"[4] وأحكمهم أكثم بن صيفي التميمي، وعامر بن الظرب العدواني، فأما اكثم فكان من المعمرين تدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة[5] .

أما عن لغة الأمثال فهي تمتاز بجودة الكناية، وبحسن التشبيه والمبالغة، باستخدام صيغ معينة(طغيان أفعال التفضيل) مثل قولهم: أسْيَر من مثل، أعزّ من كليب وائل، أكذب من مسيلمة، أسخى من حاتم، أبلغ من سَحبان بن وائل، أحلم من الأحنف بن قيس.

1-ينظر:حسنى عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، ط1،2007، ص437.

2-محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الجاهلي، دار الكتاب، بيروت، لبنان، ص145.

3-ينظر: طلال حرب: أولية النص(نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي)،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،لبنان،ط1،1999،ص147.

4-الجاحظ: البيان والتبيين، ص365.

5-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، ص408.

لكن أمثال العرب لم تأت كلها على هاته الدرجة من الرقي والانضباط الأسلوبي، بل إن كثيرا من الأمثال الجاهلية تخلو من التفنن التصويري، وهذا بطبيعة الأمثال فإنها ترد على الألسنة عفوا، وتأتي على ألسنة العامة لا محترفي الأدب، فلم يكن من الغريب أن يخرج بعضها عن القواعد الصرفية والنحوية دون أن يعيبها ذلك مثل (أَعْطِ القَوْسَ بَارِيْهَا) بتسكين الياء في باريها والأصل فتحها، وأيضا (أَجْنَاؤُهَا أَبْنَاؤُهَا) جمع جان وبان، والقياس الصرفي جناتها وبناتها؛ لأن فاعلا لا يجمع على أفعال، وهذا يثبت أن المثل لا يتغير، بل يجري كما جاء على الألسنة وإن خالف قواعد النحو وقواعد التصريف[1].

والأمثال في الأدب الجاهلي يصعب تمييزها عن الإسلامي؛ لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين، ولكن ما يشير إليه من حادث أو قصة أو خبر مما يتصل بالجاهلية، يساعد على معرفة الجاهلي وتمييزه من الإسلامي مثل:مَا يَوْمُ حَلِيمَة بِسِرٍّ (وحليمة بنت الملك غسان، ويضرب هذا المثل للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل) وقد يدل على جاهلية المثل أن يكون مخالفا لتعاليم الإسلام ومبادئه مثل: اليَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًا أَمْرٌ ،وقائله امرئ القيس في قصة ثأره لأبيه.

هذه نظرة عن حالة هذا الفن النثري، وما امتاز به من خصائص وسمات فنية، وما احتواه من دقة وصواب رأي، جعل بعضا من تلك الأمثال متداولا حتى عصرنا الحالي.

-جملة من أمثال العرب في العصر الجاهلي:

-ما يوم حليمة بسرّ .

حليمة هي بنت الحارث بن أبي شمر الغساني أحد ملوك غسان، وكان أبوها قد وجه جيشا إلى المنذر ملك الحيرة، فأخرجت إليهم طيبا وطيّبتهم به، فسمّيت تلك الواقعة باسمها، وهي الموقعة التي هزم فيها المناذرة، وقتل فيه المنذر بن ماء السماء، ومن ثم أصبح هذا المثل يضرب لكل أمر مشهور.

-قطعت جهيزة قول كل خطيب.

جهيزة اسم أمة من الإماء، والأصل أن قوما كانوا يتجادلون في أمر قاتل قتل رجلا، فراحوا يحاولون إصلاح ذات البين بين أهل القاتل وأهل القتيل، وبينما هم في ذلك الحديث، إذْ أقبلت جهيزة وأخبرت أن أحد أهل الميت قد أخذ بثأره من القاتل، فتركوا ما كانوا عليه من كلام وفُضّ المجلس، وقالوا: قطعت جهيزة قول كل خطيب.

-أجود من حاتم. هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج، كان جوادا شجاعا، ذكر مرة أنه رأى امرأة تبكي من كثرة جوع أبنائها، فقال لها: احضري صبيانك فو الله لأشبعنهم...فقام إلى فرسه فذبحه، أجّج نارا وقال: اشتوي وكلي واطعمي أولادك.

1-ينظر: زينب فواز: من تيارات الأدب الجاهلي، جامعة أسيوط، القاهرة، مصر، ص196.

-رب عجلة تهب ريثا. -ادّرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل.-المرء يعجز لا محالة. -إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه. -مقتل الرجل بين فكيه. -في الجريرة تشترك العشيرة. -كالمستجير من الرمضاء بالنار. -المنية ولا الدنية. -الصيف ضيعت اللبن. -تحت الرغوة اللبن الفصيح. -لا جماعة لمن اختلف. -إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم. -إنك لا تجني من الشوك العنب. -أخلف من عرقوب. -بلغ السيل الزبى. -رب كلام ليس فيه اكتتام. -ليس من العدل سرعة العذل. -لا تطمع في كل ما تسمع.- لا تنتظر الخير ممن هو شر في نفسه.-البس لكل حال لبوسها.- رب كلمة سلبت نعمة.- كل فتاة بأبيها معجبة.[1]...

2- الحكم:

الحكمة قول مأثور عن حكيم أو بليغ ممن جربوا الحياة وخبروها، فاكتسبوا بذلك ضروبا من المعرفة والقول وكان العرب في العصر الجاهلي يعنون بما يؤثر عن هؤلاء الحكماء البلغاء ذوي التجربة والمعرفة.

والحكمة هي لون من ألوان النثر الفني، وهي خلاصة نظر معمق إلى الحياة وما يضطرب فيها من ظواهر، تصدر عن ذوي التجارب الخصبة والعقول الراجحة والأفكار النيرة، وقائلها حكيم ينظر إلى الأمور نظرة شاملة، ويحللها تحليلا دقيقا، ثم يصدر في شأنها حكما يظل سائرا مذكورا، يعلق بالأذهان وبالقلوب، فيجري على الألسن عبر العصور والأزمان.

ويعرفها النقاد بأنها معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم، والحكم والحكمة من العلم، وقد ورد في الحديث الشريف(...وإن من الشعر حكماً) ويروى: أيضا (لحكمةً) أي كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما[2] وورد مصطلح الحكمة كثيرا في القرآن الكريم بعدة معان منها: الفهم، والعلم، والنبوة مثلما جاء في قوله تعالى:«وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ والحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ»(سورة البقرة،231) وقوله تعالى:«وَلَقَدْ آتَينَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ»(سورة لقمان،12) وقوله: «ادْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبكَ بِالحِكْمَةِ» (سورة النحل،125) .

والحكمة قول بليغ موجز يحاول سنّ نظم خلقية يتبعها الناس فيما يرضونه من خصال وسلوك، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات، تصاغ في بيت شعر، أو مثل، أو عبارة أنيقة موجزة غزيرة المعنى، ذات دلالات بعيدة، تؤدي ما يؤديه المثل، إلا إنها لم تشع في الجمهور ولم تجر إلا بين الخواص، وليس بينها وبين المثل إلا الشيوع، برأي السيوطي، بمعنى أنها إذا شاعت على الألسن صارت مثلا[3].

1-ينظر: الميداني: مجمع الأمثال، وشوقي ضيف الأدب العربي من مطلع الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية، ص89. وشوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، ص407.

2-ينظر ابن منظور: لسان العرب، مادة(حكم).

3-ينظر: هاشم صالح مناع: النثر في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص161.

لأن الناس يجدون في هذه الحكم هداية وإرشادا وتوجيها إلى ما يعينهم على الفلاح في حياتهم...إنها أقوال من جوامع الكلم[1].

وكانت الحكمة في الجاهلية تصدر عن اختبار شخصي، وتستخلص من التجارب الحياتية الكثيرة، وليس فيها أي أثر للتأمل العميق. وأغلب حِكم الجاهليين كانت بسيطة فكل معانيها لا تتعدى الفطرة والسليقة، وتدور حول تقلبات الأيام والزمان وظروف الدهر.

والمتتبع لإخبار حكماء العرب يجد أن المصادر الأدبية والتاريخية قد سجلت حكمهم، وخلدت ذكرهم. يحدثنا الجاحظ صاحب البيان عن رجال في الجاهلية عرفوا بالحكمة وحسن الكلم منهم: لقمان بن عاد الذي ورد في حديث سويد، والذي جمعت حكمه في صحيفة، ومنهم أيضا أكثم بن صيفي، وهرم بن خارجة بن سنان، ولُقيم بن لقمان، ومجاشع بن دارم، وسليط بن كعب بن يربوع، ولؤي بن غالب، وقس بن ساعدة، وقصي بن كلاب، وربيعة بن حذار، وهرم بن قُطبة، وعارم بن الظرب[1] وكانت للعرب حكيمات منهن: صُحر بنت لقمان، وهند بنت الخُسّ، وجمعة بنت حابس[2].

شروط الحكمة:

تصدر الحكمة عن عقل واع وتجربة عميقة، وخبرة طويلة، وشكل أدبي فني عميق، ومزيج من العقل والشعور، بألفاظ منتقاة وعبارات متينة، ومعاني محكمة وقوية، وأسلوب متفرد، لأجل المحافظة على البقاء والخلود، وإعطاء العبر والمواعظ، ويكون هدفها توجيه النفس الإنسانية إلى الكمال الأفضل من خلال التجربة والخبرة، التي مرّ بها صاحب الحكمة، لذلك فالحكمة لا تتأتى إلا من تتوفر فيه شروط نجملها في مايلي:

- التجرد والإخلاص.- التوفيق والإلهام. -العلم. - التجربة والخبرة. - رجاحة العقل.- العدل.

خصائص الحكم:

- أغلبها مستمد من تجارب وخبرات الحياة.
- تعتمد الحكم على الإيجاز في التعبير، فبعضها يوشك أن يكون أمثالا.
- السهولة في الأداء والتعبير.
- حسن الصياغة بألفاظ مأنوسة تزينها الصور البانية والبديع أحيانا.
- التوجيه والإرشاد .

1-ينظر الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص162.

2-ينظر شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، ص407.

إضافة إلى ذلك كله، فهي تكسب الكلام سحرا وحلاوة وتجعله مقبولا في الذوق قريبا إلى القلب مسلّما به من العقل والشعور والوجدان.وإذا اشتهرت الحكمة صارت مثلا[1] .

نماذج من الحكم:

-رب قول أنفذ من صول.-استأن أخاك فان مع اليوم غدا.- الخطأ زاد العجول.-كلم اللسان أنكأ من كلم السنان.-أول الحزم المشورة.-المكثار كحاطب ليل.-ارسل حكيما ولا توصه.-من لا يذد عن حوضه يهدم.-الكفر مخبثة لنفس المنعم.-الخير يبقى وان طال الزمان به.

-الفرق بين المثل والحكمة:

- الحكمة عامة في الأقوال والأفعال، أما المثل خاص بالأقوال.

- المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ .

- الحكمة عصارة خبرة في الحياة وخلاصة فهم لأسرارها، يدبجها ذهن ذكي فطن، فهي جمل مرصوصة رصا محكما، تستخدم في المناسبات،فقولك:(مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ)،أو(مَصَارِعُ الرِّجَالِ تَحْتَ أَلْسِنتِهَا)...وأمثالها من جوامع الكلم هي حكم تنمّ عن فهم عميق لفلسفة الحياة والمجتمع .

-المثل قول يشبه الحكمة في إيجازه، ولكنه يختلف عنه بعمقه، فأنت تستخدمه كما روي بحروفه، فقولك في من ضيع فرصة وقد أمكنت، ثم حاول استردادها بعد فواتها(الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ).

- قد ينشأ المثل من حادث أو حديث أو تشبيه أو قصة أو حكمة أو شعر، أما الحكمة فتنشأ من إعمال الفكر والتعمق في درس الحياة والتفلسف في مفاهيمها واستكناه أسرارها .

- قائل المثل مجهول في الغالب على عكس الحكمة قائلها معروف.

-المثل يقوم على تشبيه حال الثاني الذي يضرب له المثل بحال الأول الذي يضرب به المثل، أما الحكمة فإنها لا تقوم على مثل هذا التشبيه إلا نادرا .

3-الوصايا:

الوصية نوع من الأنواع الأدبية تنتقى ألفاظها انتقاء مميزا ، يطلقها مجرب حياة، فينهج فيها نهجا قويما وسلوكا تنظيميا لإنسان عزيز عليه، يبصره بما سيفعله مستقبلا، وقد عرف العرب هذا اللون النثري قديما وتناولوا فيه بعض جوانب حياتهم الاجتماعية، وضمنوه نظراتهم الحكمية، وخطراتهم الذهنية، يقول عمر فروخ: "وأما الوصايا فهي من باب الخطب إلا أن الخطبة تقال في الحفل المجمع، بينما الوصية تقال للفرد"[2].

1- محمود عبد الرحمن صالح: فنون النثر في العصر العباسي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،ط1، دت، ص77.

2-ينظر عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي من مطلع الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية، ص90.

تعددت الوصايا في العصر الجاهلي وتنوعت أغراضها على وفق الحدث المرتبط بها. واختلفت عن غيرها من صنوف الأدب، لأنها كانت نابعة من تجارب الإنسان وخبرته في الحياة. فالموصي يضع في وصيته عصارة فكره وخلاصة تجاربه في الحياة. فنراه يأتي في وصيته بجمل قصيرة مركزة، تحمل ابلغ المعاني، وأسمى القيم، ليضعها نصب عين الموصى له الذي هو الأعز لديه، والأقرب إلى قلبه، والأحب إلى نفسه، والوصية وان كانت تخرج لشخص واحد، فهي يمكن أن تفيد مجتمعا كاملا، ويمكن عدها مرجعا يفيد كل من يحتاج إلى النصح والإرشاد. ونجد صاحب كتاب "جمهرة وصايا العرب" قسمها إلى ستة أنواع وهي:

1- وصايا الملوك إلى أولياء العهد أو من يقوم مقامهم.

2-وصايا الحكماء إلى أبنائهم وأبناء العشيرة وغيرهم.

3- وصايا الآباء للأبناء وأبناء الأبناء.

4- وصايا الهداء (الزواج).

5- وصايا السفر والمسافرين.

6-وصايا الحرب.

وتروى هذه الوصايا عادة على ألسنة طوائف من الحكماء والمعمرين، الذين عُرفوا بكثرة تجاربهم وخبراتهم في الحياة من أمثال: ذي الإصبع العدواني، وزهير بن جناب الكلبي، وعامر بن الظرب العدواني، وحصن بن حذيفة الفزاري، وعمرو بن كلثوم، وأكثم بن صيفي التميمي، ومن النساء: أمامة بنت الحارث...

ويغلب على الظن أن هذه الوصايا جميعاً رويت بالمعنى، ولكنها لا تخلو من بعض العبارات الأصلية المحفوظة، ولاسيما في الوصايا القصيرة. وهي-مع ذلك- تقدم صورة عن هذا الفن النثري، لأن من رووها أو حفظوها قد راعوا أصوله وتقاليده.

خصائص الوصايا:

تكشف الوصايا أن الجاهلين كانوا يعنون بتنميق أسلوبهم في الوصايا حتى يكون له وقع جميل، ويكون هذا عاملاً مساعداً على الإصغاء إلى الوصية ثم التأثر بها، ونرى الوصية تلتزم السجع، وتعني بالازدواج، والطباق، والجناس أما السجع فواضح في الوصية، وتكشف الوصايا أيضاً عن بعض الأخلاق السائدة في ذلك المجتمع، وتعطينا صورة عن احترام المرأة للرجل وطاعة المرأة لزوجها، ووفاء الزوج لزوجته ما أطاعته ورعت ما يجب عليها رعايته. وتكشف الوصية عن أن الأم كانت توصي ابنتها قبل الزواج وتعطيها خلاصة تجاربها.

-من وصايا العرب:

وصية زهير بن جناب الكلبي:

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه قال: "يا بني قد كبرت سني وبلغت حرضاً من دهري، فأحكمتني التجارب والأمور تجربة واختبار. فاحفظوا عني ما أقول وعوه: إياكم والخورَ عند المصائب، والتواكلَ عند النوائب، فإن ذلك داعية للغم وشماتة للعدو، وسوء الظن بالرب، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم قط إلا ابتلوا، ولكن توقعوها، فإنما الإنسان في الدنيا غرض تعاوره الرماة، فمقصر دونه ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لا بد أنه مصيبه"[1].

وصية سحبان بن وائل:

"إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار، أيها الناس فخذوا من دار ممركم إلى دار مقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم. واخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حييتم، ولغيرها خلقتم. إن الرجل إذا هلك.. قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟ فقدموا بعضاً يكون لكم، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم"[2].

وصية عمرو بن كلثوم:

جمع عمرو بن كلثوم بنيه حينما حضرته الوفاة، وكان قد عاش مائة وخمسين سنة، فقال: "يا بَنِيَّ، قَدْ بَلغْتُ منْ العُمَرِ ما لمْ يَبْلغْهُ أحدٌ منْ آبائي، ولا بدَّ أنْ يَنْزلَ بي ما نَزلَ بهم منَ الموْتِ. وإني واللهِ ما عيّرتُ أحداً بشيءٍ إلا عُيِّرتُ بمثْلِهِ، إنْ كانَ حقاً فَحقا، وإن كانَ بَاطلاً فبَاطلا، ومنْ سَبَّ سُبَّ. فكُفُّوا عنِ الشتّمِ، فإنّهُ أسْلمُ لَكمْ، وأحسِنوا جِوارَكمْ، يحسنْ ثناؤُكم، وإذا حُدِّثْتم فَعوا، وإذا حَدثْتم فأوْجِزوا، فإن مع الإكثارِ تكونُ الأهْذار. أشجعُ القَومِ العَطوفُ عندَ الكرّ، كَما أن أكرمَ المنايا القتلُ، ولا خيرَ فيمن لا رَويّة لهُ عندَ الغضَبِ، ولا منْ إذا عُوتبَ لم يُعْتِبْ، ولا تَتزوجوا في حيّكم، فإنّه يودي إلى قُبْحِ البُغْضِ"[3].

وصية ذو الإصبَعِ العَدواني:

وأوصى ذو الإصبع العَدواني، لما حضرته الوفاة، ابنه فقال :"يا بُني، إن أباكَ قد فَنِيَ وهوَ حيٌّ، وعاشَ حتَى سَئِمَ العَيشَ. وإنّي مُوصيكَ بما إنْ حفظْته بَلغتَ في قَوْمكَ ما بَلغتُه: ألِنْ جانبَك لقَومك يُحبُّوكَ، وتَواضعْ لهُمْ يرفَعوكَ، وابسُطْ وجْهَكَ يُطيعوكَ، ولا تستأثْر علَيهمْ بشيءٍ يسوّدوكَ، وأكْرِم صغارَهُمْ كَما تُكْرمْ كبارَهُمْ، يُكْرمكَ كبارهُم، ويَكبُرْ على مودَّتكَ صِغارَهُمْ، واسْمحْ بمالكَ، وأعززْ جارَكَ، وأعنْ من اسْتعانَ بِكَ، وأكرم ضَيفكَ، وصُنْ وجهكَ، عنْ مسألِة أحدٍ شيئاً، فَبذلِكَ يَتمُّ سُؤْدُدُكَ"[4].

1-احمد زكي صفوت:جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، ص126.

2-المصدر نفسه

3-هاشم صالح مناع: النثر في العصر الجاهلي، ص 117.

4- هاشم صالح مناع: النثر في العصر الجاهلي، ص109.

وصية أمامة بنت الحارث إلى ابنتها أم إياس:

لما حان أن تحمل أم إياس إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة، دخلت عليها أمها لتوصيها فقالت: "أي بنية: أن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال، أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا، فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا.

يا بنية: احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا: الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدوّ عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير، ولا تفشي له سرا، ولا تعص له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، ثم أتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحا، والاكتئاب عنده إن كان فرحا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظاما، يكن أشد ما يكون لك إكراما، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري: رضاه على رضاك وهواه على هواك، فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك"[1].

هي مجموعة من الوصايا صادرة عن أم لابنتها قبل زواجها، تبين فيها خلاصة تجاربها وخبراتها الزوجية من اجل خلق جو اسري يقوم على الحب والوئام والتفاهم والترابط والصفاء والنقاء والإخلاص والطاعة، وتنبع أهمية هذه الوصية من كونها مرسلة من امرأة عركتها الأيام وحنكتها السنون، وخاضت معركة الحياة، فخرجت بحصيلة كبيرة وخبرة عميقة، كل ذلك اختمر في أعماقها، فاستخرجت صفوته لأعز ما تملك ابنتها لتراها زوجة مثالية.

1- هاشم صالح مناع: النثر في العصر الجاهلي، ص140، 141..

المحاضرة الثالثة: تطور الأشكال النثرية، الخطب والرسائل. حجة الوداع، خطبة زياد...

1-الخطب:

الخطابة في اللغة من خطب خَطَابةً وخُطْبةً: ألقى عليهم خُطْبة. وخَطَب فلانةً خَطْبًا وخِطْبَة، طلبها للزواج. وخَطُب خَطابة: صار خطيبًا. وخاطبه مخاطبة وخِطابا، كلمه وحادثة، أو وجّه إليه كلاما. والخِطاب: الكلام، وفَصْل الخِطَاب هو خطاب لا يكون فيه اختصار مُخِلّ ولا إسهاب مُمِلّ والخُطْبة: الكلام المنثور يخاطِب به مُتكلِّمٌ فصيحٌ جَمْعًا من الناس لإقناعهم، ومن الكتاب: صدْرُه جمع خُطَب، والخَطَّاب: وصف للمبالغة للكثير الخطبة بضم الخاء وكسرها. والخطيب الحسن الخُطبة[1].

وفي لسان العرب من الخِطَابُ والمخَاطَبَةُ: مراجعة الكلام، وقد خَاطَبَهُ بالكلام مُخَاطَبَةً وخِطَابًا، وهما يخاطبان، والخُطْبَةُ مصدر الخَطِيْبِ، وخَطَبَ الخَاطِبُ على المنبر، وخَطَبَ يَخْطُبُ خَطَابَةً، واسم الكلام الخُطْبَةُ. قال الليث: إن الخُطْبَةَ مصدر الخَطِيْبِ، لا يجوز إلا على وجه واحد، وهو أن الخُطْبَةَ اسم الكلام الذي يتكلم به الخَطِيْبُ، والخَطْبُ سبب الأمر...والخِطَابُ مراجعة الكلام، والخطب مصدر الخَطِيْبِ وجمع الخطيب خُطَبَاءٌ[2].

ومن الناحية الاصطلاحية فالخطابة "قياس مركب من مقدمات مقبولة أومظنونة، من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ"[3]. وجوهر الخطابة عند الجرجاني ما يقوم به الوعاظ، من استخدام للمنطق القائم على المقدمات والنتائج، وذلك لاستمالة الناس وإقناعهم،لما فيه خيرهم وصلاحهم.

والخطابة فنُّ مشافهةِ الجمهور، وإقناعِه واستمالتِه. فلابد من تحقق المشافهة، وإلا كانت كتابة أو شعرًا مدونًا. ولابد من جمهور يستمع، وإلا كان الكلام حديثا أو وصية. ولابد من الإقناع، وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين، ويؤيدَه بالبراهين ليعتقدوه كما اعتقده، ثم لابد من الاستمالة، والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئَها، ويقبضَ على زمام عواطفهم يتصرّف بها كيف شاء، سارًّا أو مُحزِنًا، مُضحِكًا أو مُبكيًا، داعيًا إلى الثورة أو إلى السكينة. ومن ثم فأسسها: المشافهة، والجمهور، والإقناع، والاستمالة[4].

1- ينظر:الفيروز الآبادي: القاموس المحيط، مادة(خطب)

2- ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة(خطب).

3- الجرجاني: التعريفات، ص148.

4- ينظر: أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، ص5.

وعلم الخطابة هو مجموعة قوانينَ تُعرِّف الدارسَ طرقَ التأثير بالكلام، وحسنَ الإقناع بالخطاب , فهو يُعنَى بدراسة طرق التأثير ووسائل الإقناع، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات، وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني في الموضوعات المختلفة، وما تكون عليه ألفاظ الخطبة وأساليبها وترتيبها، وهو بهذا ينير الطريق أمام من عنده استعداد الخَطابة[1]. ومن شروطها:

- توفر جمهور يستمع، وإلا كان الكلام حديثا أو وصية.
- الإقناع، وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه، ويؤيده بالحجج والبراهين الدامغة.
- الاستمالة والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها، يقبض على زمام عواطفهم.

– تطور الخطابة في العصر الجاهلي:

مما لا شك فيه أن العرب ما قبل الإسلام كانت لهم خطب قوية، وأنهم اعتمدوا عليها في مواقفهم الهامة والمصيرية، واستعملوها في مجتمعاتهم ودعواهم للحرب والغزو أو السلم والسلام، والخطابة عند العرب مظهر من مظاهر الفروسية والرجولة، وسبيل من سبل الإقناع، وقد مارسوها وأبدعوا فيها منذ القدم.

وقد ذهب الكثير من تلك الخطب مع الزمن، وحفظ لنا التاريخ قليلا منها كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين ولم يبق من خطبهم شيء، وذلك لتفشي الأمية، وقلة التدوين، وبعد الزمن. ومن العوامل التي لعبت دورا هاما في تطور الخطابة في العصر الجاهلي: الحروب، والأسواق، والمجالس والأندية، والتعصب والمفاخرة، والزواج...

–خصائص الخطابة الجاهلية:

إن الخطابة كفنّ تتميز بمجموعة من الخصائص والأساليب، التي تميزها عن غيرها من الفنون منها:

- غياب المنهج، فلا مقدمة ولا خاتمة.
- القصر مقارنة مع خطب عصر الإسلام
- الاستشهاد بالشعر، وضرب الأمثال والحكم.
- الصنعة(استخدام السجع، الازدواج).
- بساطة الأفكار[28].

–الخطابة في العصر الإسلامي:

الخطابة ضرورية لكل مجتمع في سلمه وحربه، فهي أداة الدعوة إلى الرأي والتوجيه إلى الخير، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين، والزعماء والمصلحين، فهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية. ازدهرت الخطابة في هذا العصر ولا سيما الخطابة الدينية، وذلك بزوال خطب المنافرات

1- ينظر: محمد أبو زهرة: الخطابة أصولها تاريخا في أزهي عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1980، ص9.

والمفاخرات، والانصراف عن السجع، فانطبعت الخطبة باللين والهدوء، وعدم الاستشهاد بالشعر. وأهم ما تميزت به الخطابة في صدر الإسلام تأثرها بأسلوب القرآن الكريم إلى حد بعيد، فهي تستمد منه ما يساعد في الإقناع والإرشاد والاحتجاج، فكان الخطباء يزينون كلامهم بأحاديث النبي-صلى الله عليه وسلم- كما اتخذت الخطبة في هذا العصر تقليدا خاصا في البدء بالبسملة، والحمدلة، والختام بالدعاء والاستغفار، وكان همّ الخطباء أداء الفكرة من غير صناعة أو تنميق.

وقد اعتمد الإسلام على الخطابة كأداة للتبليغ، وتفنيد حجج الخصوم، وإعلان قيم الإسلام وآدابه وأحكامه، فأصبحت وسيلة الدعاة المفضلة، بل صارت شعيرة من شعائر بعض العبادات. فهي جزء من صلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وصلاة الاستسقاء. وهي وسيلة لإبلاغ المسلمين عندما يحز بهم أمر أو يلم بهم خطب، أو تظهر الحاجة لاستنهاض الناس واستنفارهم.

-عوامل ازدهارها في العصر الإسلامي:

احتلت الخطابة المكانة التي كانت للشعر من قبل، لأن العقيدة الجديدة تستلزم الخطابة وتستدعيها، فضلا عن كثرة التنازع السياسي والديني، فكان عصر صدر الإسلام من أعظم العصور الأدبية أثرا في الخطابة، إذ استكملت عناصرها الفنية والأدبية، وكان ازدهارها نتيجة لمؤثرات كثيرة منها:

- الدعوة الإسلامية والخصومة بين أنصارها ومعارضيها.
- رفع الإسلام من شأن العقل، وخفضه لغلواء العاطفة.
- الرقي السياسي والاجتماعي، إذ أصبحت العرب أمة واحدة لها رئيس أعلى، ونظمت شؤونها الاجتماعية تنظيما استدعى الخطابة، سواء كان من الخليفة أو قواده أو عماله، أم من أفراد الأمة وخطبائها، أم في مجالس القضاء والشورى والفصل في الأمور.
- سلامة الملكات وقوة الطباع وعذوبة الألسنة، والقدرة على الارتجال، وذيوع آثار بلاغة القرآن والحديث في النفوس والعقول والأذواق.
- كثرة الخلافات حول الخلافة بعد موت الرسول-صلى الله عليه وسلم- وبعد مقتل عمر -رضي الله- عنه وما يستلزم ذلك من كثرة فن الخطابة والحجاج بين الآراء والأفكار والأحزاب السياسية[1].

- التغيرات التي طرأت على الخطابة مع قدوم الإسلام:

لقد كان ظهور الإسلام إيذانا بتطور فن الخطابة شكلا ومضمونا، إذ قضي على كل لون قديم لا يتفق وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، أو مع روحه السمحة، فكان من الطبيعي أن يحد من غلواء

1- ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، ص236.

خطب المنافرات والتفاخر بالأحساب والأنساب والأجداد، ولذا يتوجب علينا أن نتوقف عند هذه العوامل التي أدت إلى هذه التغيرات الجذرية ومنها:

– الانتقال من العصبية القبلية إلى العقيدة.

– الدعوة إلى الدين الجديد؛ فقد كانت الخطابة هي السلاح النافذ للرد على المشركين.

– القضاء على الوثنية بما تحمله من سحر وكهانة وشعوذة وخرافة، وبذلك ارتقى العقل البشري متخلصا من كل العادات والشوائب السابقة.

– إبطال العادات والسنن القبيحة، وبناء مجتمع نظيف.

-خصائص الخطابة في العصر الإسلامي:

– تعدد الموضوعات.– الطول مقارنة بالجاهلية.– عدم تكلف السجع.– التخلي عن الأمثال والحكم.

– الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.– اتفاق العبارات مع المضمون.

– الاستهلال بالحمدلة والبسملة.– شدة العاطفة وجزالة الألفاظ[1].

– نموذج عن خطبة من العصر الإسلامي:

خطبة حجة الوداع:

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أنّ لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا ادري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم. كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد!

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها، إنّ ربا الجاهلية موضوع، وإنّ أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإنّ دماء الجاهلية موضوعة، وإنّ أوّل دمٍ نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإنّ مآثر الجاهلية موضوعة، غير السِّدانة والسِّقاية، والعَمْدُ قَوَدٌ، وشبه العمْدِ: ما قُتِلَ بالعصا والحجر، وفيه مائةُ بعيرٍ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

1– ينظر: الجاحظ: البيان والتبيين، ص271.

أيها الناس: إنّ الشيطان قد يئس أن يعبدَ في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك ممّن تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إنّ النّسِيءَ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يُحلُّونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فلْيُحِلُّوا ما حرم الله. إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وإنّ عدة الشهور عند الله اثْنَا عشر شهرا في كتاب الله. يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثةٌ متواليات، وواحدٌ فردٌ: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجبُ الذي بين جمادى وشعبان.

ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إنّ لنسائكم عليكم حقاّ، ولكم عليهنّ حقّ، لكم عليهنّ ألاّ يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبيّنةٍ، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تعضلوهنّ، وتهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساءُ عندكم عَوانٍ، لا يملكن لأنفسهنّ شيئا، وأخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهنّ خيرا.

ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد!

أيّها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لامرئ مسلم مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه.

ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد!

فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله.

ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد!

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، إنّ الله عليم خبير، وليس لعربيّ على عجميّ فضلٌ إلاّ بالتقوى.

ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد!

قالوا: نعم. قال: فليبلغِ الشاهدُ الغائبَ"[1]

وتمتاز خطب الرسول-صلى الله عليه وسلم- بالميزات الآتية:

- قصر العبارات وكثرة المعاني.
- الحث على الأعمال الصالحة والنهي عن ارتكاب الباطل.
- التبشير بالجنة والوعيد بجهنم.

1-هشام صالح مناع: من روائع الأدب العربي العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، دار الهلال، بيروت، ط2، 1991، ص127، 128، 129.

- خطبه ارتجالية تبدأ بالبسملة، والحمد(والتي لا تفتتح بالحمد بعد البسملة تسمى بتراء) والثناء على الباري تبارك وتعالى، والشهادة بعد الحمد لله (والتي تخلو من الشهادة بعد الحمد تسمى جذماء).

-الخطابة في العصر الأموي:

تطورت الخطابة في هذا العصر، إذ تناولت شؤون الدولة العامة، ومثلت السياسة أصدق تمثيل وكانت السلاح الذي يعتمد عليه الساسة من الأحزاب المختلفة في الدعاية لأنفسهم، واستمالة القلوب إليهم، وتهديد الخارجين عنهم، والحملة على خصومهم ومناوئيهم.

وقد ازدهرت الخطابة السياسية في هذا العصر ازدهارا كبيرا، وعدّت في تلك الفترة نموذجا مكتملا للخطابة العربية في العصور السابقة[1] .

- عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي:

لقد كانت كل الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية مهيأة لازدهار فن الخطابة بصفة عامة والخطابة السياسية بصفة خاصة ومن أهم عوامل تطورها:

-كثرة الأحزاب السياسية وتعددها، فكان لكل حزب خطباؤه المدافعون عن آرائه.

- الحروب والثورات التي كانت تذكي الخطابة وتقدح زنادها، إذ كان أغلبية القواد والفاتحين ذوي ألسن فصيحة، يتخذون من الخطابة سلاحا لتحميس جنودهم وحثهم على الجهاد.

-تمتع العربي في هذا العصر بالموهبة البيانية، والفصاحه المتوارثة عن الأوائل، ذلك أن سليقتهم لم تكن قد فسدت بعد، فقد كان حرصهم شديدا على سلامة لغتهم وأدبهم.

-تقدير الخطباء والرفع من شأنهم، إذ أصبح بإمكان الخطيب أن ينافس بمقدرته الكلامية حتى أبناء السادة والأشراف، فلم تعد المناصب الحساسة حكرا عليهم[2].

- نموذج عن الخطابة في العصر الأموي:

من خطب عمر بن عبد العزيز: "أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا، ولم تتركوا سدى، وإن لكم ميعادا يحكم الله فيه بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف ربه وباع قليلا بكثير وفانيا بباق، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون.كذلك حتى تردون إلى خير الوارثين...وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي فأستغفر الله لي ولكم"[3].

1- ينظر: أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، ص209.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص211.

3-الجاحظ: البيان والتبيين، ص291.

خطبة زياد بن أبيه:

ولد زياد بمكة في السنة الأولى من الهجرة، وكانت أمه سمية جارية من الطائف، ولم يكن أبوه معروفا، فدعاه الناس زياد بن سمية، ثم اشتهر باسم زياد بن أبيه، شب ذكيا مقتدرا وأديبا بارعا، وكان إداريا حازما وسياسيا قديرا فقد في دهاة العرب إلى جانب معاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص. سكن زياد البصرة، وكان من أصحاب علي بن أبي طالب شديد الوفاء له، فولاّه على فارس فضبطها وجمع أمورها، وحاول معاوية أن يستميل زيادا فلم يستطع لوفائه لعلي بن أبي طالب، ولما قتل علي بن أبي طالب ولىّ معاوية، وآلت الأمور إلى بني أمية، فولاه معاوية على البصرة سنة45هـ ثم ضم إليه الكوفة، وكان أول من جمع له الكوفة والبصرة، وملك زياد العراق خمس سنوات فضبطه وأقرّ الأمن فيه، توفي زياد في الكوفة، قيل بالطاعون سنة53هـ[1].

يعد من مشاهير الخطباء، وكان داهية حصيف الرأي حازما شديدا في الحق إلى حد العنف أحيانا مع كثير من الحلم والكياسة، وكان في خطبه حاضر الذهن، طلق اللسان، يطيل الخطب، وكلما أطال أجاد، وكان يعتمد الوعيد والتهديد للتأثير في السامعين، وهو أول من ألف كتابا في (المثالب)ومازال معاوية يتلطف مع زياد حتى اظهر اللين واستجاب لدعوة الأمويين، وخطبته الآتية تمهيد أمام الناس لانتقاله من شيعة الإمام علي بن أبي طالب إلى الدخول في سياسة معاوية.

خطبة زياد بن أبيه يعلن فيها جنوحه إلى معاوية بن أبي سفيان:

"أيها الناس: ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم، فقد نظرت في أمور الناس منذ مقتل عثمان، وفكرت فيهم، فوجدتهم كالأضاحي في كل عيد يذبحون. ولقد أفنى هذان اليومان؛ يوم الجمل وصفين ما ينيف عن مئة ألف، كلهم يزعم أنه طالب حق، وتابع إمام، وعلى بصيرة من أمره، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة. كلا، ليس كذلك، ولكن أشكل الأمر، والتبس على القوم.وإني لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ، فكيف لامرئ بسلامة دينه. وقد نظرت في أمر الناس، فوجدت أحمد العاقبتين العافية، وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله"[2].

الخطبة البتراء:

"أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام التي ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير. كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدّه الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته. أتكونون

1- ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي من مطلع الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية، ص388.

2- ينظر:محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، ص246.

كمن طرفت عينه الدنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية؟ ألم يكن فيكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ قربتم القرابة وباعدتم الدين: تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس. كل امرئ منكم يذبُّ عن سفيه، صُنْعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا. ما أنتم بالحلماء وقد اتّبعتم السفهاء. فلم يزل ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرمَ الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا في مكانس الرّيب. حرامٌ عليَّ الطعامُ والشراب حتى أسويها بالأرض هَدْما وإحراقا.

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لينٌ في غير ضعف، وشدةٌ في غير عنف. وإني أقسم بالله، لآخذن الوليّ منكم بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والسليم منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انجُ، سعدُ، فقد هلك سعيد. أو تستقيم لي قناتكم.

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة: فمن غرّق قوما غرّقناه، ومن نقب عن بيت نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيّا. فكفوا عني أيديكم اكفف عنكم يدي ولساني، ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامّتكم إلا ضربت عُنُقه.

وقد كانت بينكم وبين أقوام إحنٌ، فجعلت ذلك دَبْرَ أذني وتحت قدمي. فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلُّ من بغضي لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتى يبدي لي صفحته. فإن فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم. فرب مبتئس بقدومنا سيُسَر، وربّ مسرور بقدومنا سيبتئس"[1].

-الخطابة في العصر العباسي:

لقد تراجعت مكانة الخطابة بالتدريج في هذا العصر؛ ذلك أن العباسيين على عكس الأمويين لم يطلقوا لها العنان لتزدهر وتحافظ على مستواها الفني الرفيع،كما أن النثر المكتوب أخذ ينافسها بالتدريج إلى أن احتل مكانتها. إضافة إلى ذلك فقد تغيرت مكانة بعض الخطب عما كانت عليه سابقا.

- خصائص الخطابة في العصر العباسي:

-ضاقت على الخطباء مسالك التجديد، فاتخذوا من الموضوعات والمعاني القديمة مجالا للقول. غير أن ما يحمد للخطباء أنهم كانوا يميلون إلى المعاني الواضحة، غير أن الأفكار التي عبروا عنها لم تكن بالعمق الذي ينتظره الباحث، فاشتملت الخطب على أفكار مسطحة؛ نظرا لضيق صدر السلطة، وميل الخطباء إلى إيثار السلامة، وتتجلى خصائصها في ما يلي:

1- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي من مطلع الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية، ص390..

-كان للخطب هيكل عام يقوم على أربعة أركان هي: التحميد، الصلاة على-النبي صلى الله عليه وسلم- – عرض الموضوع، ثم الخاتمة. وكانوا يعمدون إلى الإيجاز في أغلب الأحيان، وقليلا ما نجد خطيبا يطيل فيها، وكانت تختتم بالدعاء، حيث يدعو الخطيب لنفسه ولغيره بما فيه الخير والصلاح.

-غلب على الخطباء الميل إلى السلاسة في الأساليب والسهولة في العبارات والتراكيب، واستخدام الجمل المستوية الخالية من التعقيد، وقد تحاشى الخطباء استخدام الألفاظ السوقية أو الموغلة في الغموض، فجاءت ألفاظهم مأنوسة مألوفة.

-كثر في الخطب اللجوء إلى الاقتباس والتضمين من القرآن والأحاديث النبوية الشريفة. وفيما يتعلق بالذوق العام كان الناس يميلون إلى تضمين الأمثال في الخطب لا الشعر، إلا في الخطب القصار والمواعظ، وكان الجمهور من الناس والخطباء يرغبون في توشيح الخطب بالقرآن وبالأمثال السائرة، ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا توشح بالقرآن وبالأمثال بالخطبة الشوهاء[1] .

المحاضرة الرابعة: المناظرات. مناظرات من بلاط المأمون...

1-ينظر: محمود عبد الرحيم صالح: فنون النثر في العصر العباسي، ص27.

انتشرت ببغداد في العصر العباسي بالمجالس العلمية والمناظرات في المساجد ومجالس العلم وبلاط الخلفاء، وقد اشتهرت بعض هذه المجالس حتى صارت مضرب الأمثال مثل المسألة الزنبورية التي جرت بحضرة الرشيد أو يحي بن خالد البرمكي، على اختلاف رواياتها، أو بين سيبويه والكسائي، ورؤي أن هذه المسألة كانت سبب موت سيبويه من الغم[1]. أو ما جرى بين ثعلب والمبرد من الخلاف الذي أذكى ناره انتماؤهما لمدرستين مختلفتين في النحو، فقد كان ثعلب كوفياً والمبرد بصريا[2].

وقد استطاع مجتمع أهل العلم ببغداد من خلال هذه المناظرات الارتقاء بالعلوم الدينية واللغوية والأدبية، ولم يكن ينبري لها إلا أهل التمكُّن في العلم. وقد اهتم نفرّ من العلماء بجمع هذه المجالس مثل كتاب: مجالس العلماء للزجاجي.

المُناظرة لغةً واصطلاحاً:

إذا بحثنا في المعاجم اللغوية العربية عن جذور كلمة مناظرة، نجد النون والظاء والراء أصل صحيح يرجع إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعانيه[3]. والمناظرة على وزن المفاعلة، والمفاعلة إثارة الفعل أو تحريك الفعل بين اثنين[4]. ويقال: ناظرت فلانا إذا صرت نظيرا له في المخاطبة وناظره وباراه في المحاجة[5]. والنظر تقليب البصيرة بعد الفحص، ومنه نظر إلى الشيء أبصره وتأمّله بعينه، ونظر فيه : تدبَّر وفكَّر، ونظر بين الناس: حكمَ وفصلَ، ويُقالُ: داري تنظر داره : تُقابلها، وناظر فلاناً: صار نظيراً له، وناظره: باحثَه وباراهُ في المحاجّة . والمناظرُ : المجادلُ المحاجُّ[6]. والمناظرة اصطلاحًا: النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب[7].

وأما من الناحية الاصطلاحية فالمناظرة لها تعريفات متعددة وحدود متباينة، ولنصل إلى تعريف جامع لا بأس أن نستقصي أراء بعض النقاد والدارسين، ومن ذلك ما ذهب إليه الراغب الأصفهاني بقوله:"اعلم أن المناظرة في اللغة مأخوذة من النظير أو النظر بمعنى البصر، وفي الاصطلاح هي النظر بالبصيرة من الجانبين بين الشيئين إظهارا للصواب[8] وهناك من يقرنها بالحوار مثلما الأمر عند محمد الشنقيطي الذي يرى بأنها

1-ينظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005، ج5، ص212..

2-ينظر:ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج4، ص319.

3- ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 1979، ج5، مادة نظر، ص444.

4- ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث القاهرة، مصر، دط، 2003، ج8 مادة نظر، ص606.

5- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج2، مادة نظر ص932.

6-إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، مادة (نظر).

7-الجرجاني محمد بن علي القاضي: التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، دت، ص232.

8- طاشا كبرى زاده: الآداب في علم البحث والمناظرة، تحقيق حايف النبهان، الظاهرية ، الكويت، 2012، ص42.

محاورة بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الأخر من أجل الوصول إلى الحقيقة والصواب[1] .

وعند محمد غنيمي هي قالب فني عام، وهي من الأجناس الأدبية التي تدق فيصعب تحديد معالمها لتمييز مواطن التلاقي التاريخية فيها بين الآداب، ويرى أن مواطن الاتفاق بين فن الحوار وفن المناظرة في كونهما ضربا من الخطابة بين شخصين أو أكثر، إلا أن الاختلاف بينهما يكمن في أن المناظرة يقصد بها شرح وجهتي نظر مختلفتين أو عرض صورتين متضادتين وذلك باستخدام الحجة والبرهان حتى يتم نقض حجة الخصم وإبطالها[2] وأما عند طه عبد الرحمن فهي النظر من جانبين في مسالة معينة قصد إظهار الصواب ويلحق بتعريفه مصطلحات كالعارض والمعترض ويرى أنه يجب أن يكون لعرضه أو اعتراضه أثر هادف ومشروع في اعتقادات من يناظره سعيا وراء الإقناع والاقتناع برأي صائب، لأن الغاية من المناظرة في الأخير الوصول إلى الرأي الصائب والحقيقة[3].

وفي معجم المصطلحات العربي هي تبادل الكلام والآراء المتعارضة في موضوع ما يثير الجدل كبعض الموضوعات السياسية والأدبية، أو هي نوع من المحاورات التي احتدمت بين النحاة والمناطقة والمتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل حول مسائل عقيدية وغير عقيدية، وكانت موضوعات هذه المناظرات مختلفة منها: القضايا الدينية والأخلاقية والسياسية واللغوية والأدبية[4].

ونستشف من كل هذه الأقوال أن المناظرة هي محاورة بين طرفين لكل منهما وجهة نظر تخالف وجهة الأخر، يحاول كل منهما إثبات صحة رأيه، ودحض حجة غيره ليسقط فرضياته بما يملك من براهين منطقية دون الدخول في صراع جدلي، وطرفا المناظرة يحاولان الوصول إلى رأي مشترك في قضية ما بهدف الموضوعية ومعرفة الحقيقة، فالمناظرة وسيلة تواصلية ومجادلة بالتي هي أحسن، لأنها فن المنطق وحسن التفكير والاحتكام إلى العقل والتحاور.

وعلى هذا الأساس يحتاج المتناظر فيها إلى إعمال نظره بدقة فيما يعرض له أو يتناوله فكل يطمع في أن ينتصر على صاحبه لما في النفوس من حُبّ الغلبة.

وحتى تكون المناظرة مجدية مع توافر عنصر الإمتاع، فإنه يفترض أن يكون المتناظرون على مستويات متقاربة من الفهم والإدراك، ولا نقول بالمطابقة، لأنها نادرة الحدوث، ولكنَّ التقارب في المستوى العقلي

---

[1]- الشنقيطي محمد الأمين: آداب البحث والمناظرة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، مكتبة العلم، جدة، السعودية، دط، دت، ص3.

[2]- ينظر: محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2005، ص206.

[3]- ينظر: طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2008، ص47.

[4]- ينظر: مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص390.

والعلمي يجعل من المناظرة عملاً فكريا له قيمته، ويفترض في المناظر أن يكون على مستوى علمي وثقافي جيد بحيث يكون في مقدوره الصمود أمام من يناظر، ذلك لأن المناظرات طرح لمسائل فكرية عديدة كما أنها تقوم بتصحيح كثير من المفاهيم، وشق طرق جديدة أمام التفكير.

-المناظرات في العصر العباسي:

تُعدُّ المناظرات من أهم الفنون النثرية في العصر العباسي، كما تعدّ من الفنون الجديدة في النثر العربي، وقد نمت وازدهرت في القرن الثاني الهجري، وقد كان لمجالس العلم والمناظرة مكانة سامية في العصر العباسي، لأنَّ خلفاء هذا العصر بحكم دعوتهم السياسية، واستفحال أمر المدنية، وعِظَم الحضارة في أيامهم، جعلوا من مراسيم بلاطهم، وتقاليد ملكهم، عقد تلك المجالس إيناساً بالعلم وأهله وتنشيطاً للحركة العلمية، وتشجيع أربابها، وتقوية للدولة، لأن الدول إنما تقوى في ظلال العلم، وعلى أيدي ذويه.

في بادئ الأمر كانت مجالس العلم مجالس للمناظرة والمذاكرة، تنعقد في المساجد وما يلحق بها من مدارس، ثم حبب إلى نفوس الخلفاء العباسيين استقدام العلماء إلى مجالسهم، وانعقاد حلقاتهم العلمية في قصورهم، ثم تطورت فشملت عِلية القوم وسائر الأمراء في ذلك. ولقد اتخذ المهدي بن أبي جعفر المنصور مما كان يعقده للعلماء من مجالس وسيلة لتحقيق مسائل الدين التي كان يتجادل فيها المتجادلون، وللردِّ على الزنادقة والملحدين. وطلب إلى العلماء أن يناقشوهم في حوارهم بمثل كلامهم من غير الاحتكام إلى القرآن والسنة[1]، فإنَّ الجاحد لا ينبغي أن يُحتج عليه بما لا يؤمن به. فنشأ من ذلك علم الجدل والمناظرة وعلم الكلام، وانبنى على هذا أيضاً ترجمة علم المنطق ونقله إلى اللغة العربية، إذ هو أداة البراهين، وآلة الفكر والبحث، كما اقتبس علماء الإسلام وأئمتهم الأعلام علوم الرياضيات والطبيعيات والإلهيات، لاستخدام دقائقها من البراهين الفعلية والأدلة المنطقية.

وقد ولع الرشيد والبرامكة بهذا اللون الجديد من العلم والمعرفة ولعاً شديداً، وكانت مجالسهم مجالاً فسيحاً لما تجود به العقول والقرائح، وكان ليحيى بن خالد البرمكي مجلسا للمناظرة والعلم، يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من أهل الجدل، فيتباحثون في الكون والحدوث والقدم والإثبات ونفي الصفات، وغير ذلك من الأبحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام.

ويعود الفضل في شيوع المناظرات وازدهارها إلى المتكلمين وخاصة المعتزلة، حيث اتخذوا الجدل والمناظرة وسيلة اعتمدوا عليها في مباحثهم ونشر مبادئهم، وفي أداء مهمتهم بصفة عامة، وقد ارتقى الجدل والمناظرة آنذاك إلى حد بعيد وانتشر هذا اللَّون في المجالس المختلفة حتى بهر الناس.

1-ينظر: ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي: تاريخ ابن كثير البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ج10، ص215.

وكان أصلُ المناظرات في الأصل دينياً فقد كان خصوم العقيدة الإسلامية يحاولون النيل من المسلمين بإثارة الجدل في بعض القضايا فهبَّ علماء المسلمين للذود عن العقيدة.

من المعلوم في تاريخ الفكر الإسلامي أن المعتزلة أعطوا للعقل نصيباً وافراً بين الأمور، يعتمد الحجة المنطقية في الرد، ويقدمون القياس للوصول إلى النتائج، فشهد العصر العباسي نشاطهم الملموس في مضمار البحث والمناظرة ومنذ أن عُرفوا كانوا يحاورون أصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة، ومن حين إلى حين يحاور بعضهم بعضاً في غوامض الفلسفة محللين مستنبطين كأروع ما يكون التحليل والاستنباط، وكثيراً ما ردُّوا على فلاسفة اليونان، واشتقوا لهم آراء جديدة، يدعمها العقل الذي شُغفوا به وبأدِلّته وبراهينه.

فكثرت مسائل العلم وقضاياه، وتطلب ذلك أن يكون للاجتهاد مكانته في نشاط العلماء، وكل مجتهد يحاول أن يظهر رأيه ويدافع عنه، ويثبت نفسه في ميدان العلم أخذاً ورداً، فاستعرتْ نارُ المناظرات بين الفرق المختلفة، وأصبحت أسُس الحوار صلبة تحتمل ما يلقى عليها علاوة على ما سبق أن ذكرنا فقد احتدم الجدال بين الفقهاء في اجتهادهم ومدى أخذهم بالقياس، فكان الفقهاء يناقشون، وكان المتكلمون من أصحاب الفرق الدينية يتجادلون.

ومن الثابت أنَّ المعتزلة برعوا في المنطق والقياس ولكن براعتهم لم تقتصر على هذا الجانب العقلي وحسب، ولكنهم جمعوا إليه تفنُّنهم في انتقاء الأساليب اللغوية الأدبية، فقد ثبت أنهم أهل فصاحة، عرفوا اللغة وعرفوا كثيراً من دقائقها وأسرارها، وليس هذا بمستغربٍ عليهم وهم الذين يهدفون إلى التأثير في السامع بالحجة البالغة فكراً ولغة، ولذلك فقد وجَّهوا عنايتهم إلى البيان والأسلوب، وكانوا بطبيعة تفكيرهم أقدر الناس على تفهم دقائقها؛ لما توافر لهم من الفصاحة والبيان، والدأب على جمع الأدب ونثره للحجاج الديني، ولتربية ملكة للتعبير عما يدعون إليه. وللثقافة شأنها في تربية الناقد والأديب. ومن مناظراتهم نسوق هذا النموذج.

-نماذج من المناظرات:

قال أبو الهذيل لمجوسي: ما تقول في النار؟ قال: بنية الله، قال: فالبقر، قال: ملائكة الله تعالى، قال: فالماء، قال: نور الله، قال: فالجوع والعطش، قال: هما فقر الشيطان وفاقته، قال: فمن يحمل الأرض؟ قال: "بهمن" الملك، قال: بئسما عملتم، أخذتم الملائكة ذبحتموها ثم غسلتموها بنور الله ثم شويتموها ببنت الله ثم دفعتموها إلى فقر الشيطان وفاقته ثم سلحتموها على "بهمن" الملك[1].

1-الأصفهاني أبو القاسم: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الأرقم، بيروت، ط1، ج2، ص438.

وهكذا يُمكن أن نخلص إلى أنَّ فنَّ المناظرات لم يكن جديداً كل الجدة في هذا العصر، بل كانت له جذوره وأصوله التي نمت وتطورت تبعاً لماَ طلع ثمره من علومٍ ومعارف جديدة.

قال أحمد بن أبي قاضي: تناظرت أنا والفتح بن خاقان في منزله: أيّما الرجلين أشعر: أبو نواس أم أبو العتاهية – فقال الفتح: أبو نواس، وقلت: أبو العتاهية، ثم قلت: لو وضُعتْ أشعارُ العرب كلها بإزاء شعر أبي العتاهية لفضلها، وليس بيننا خلاف في أن له في كل قصيدة جيداً ووسطاً وضعيفاً، فإذا جُمع جيّدُه كان أكثر من جيّد كل مُجيد، ثم قلت له: بمن ترضى؟ قال : بالحسين بن الضحَّاك، فما انقطع كلامنا حتى دخل الحسين ابن الضحَّاك، فقلت: ما تقول في رجلين تشاجرا فضل أحدهما أبا نواس، وفضل الآخر أبا العتاهية؟ فقال الحسين: أمّ من فضل أبا نواس على أبي العتاهية زانية، فخجل الفتح حتى بان ذلك فيه، ثم لم يعاودني في شيء من ذكرهما حتى افترقنا[1].

تدلُّ هذه المناظرة على أن صاحب أبي العتاهية اعتمد شعرَه من أوله إلى آخره، ومن ثمَّ جعلَ منزلتُه فوق منزلة أبي نواس، ولا ريب أنه كان لحدّةِ الطبع والخروج إلى حدِّ السبَّاب عند صاحب أبي العتاهية دورٌ في غلبته على صاحب أبي نواس، الذي أحجم عن مبادلته السِّباب رهبةً أو تنزُّهاً ، وإلا فإنَّ كثيراً من كتب النقد الأدبي فضَّلت شعرَ أبي نواس على شعر أبي العتاهية، وإن كانت الحربُ سِجالاً بين النُّقَّاد في المفاضلة بينهما، وهذا راجع لاختلاف مشاربهما وميادين سبقهما، فقد كان الزُّهد حَلبة أبي العتاهية، ووصف الخمر والقيان والغزل حلبة أبي نواس.

وفي مجال الحكم على الشعراء وبيان أقدارهم ما قاله أحمد بن القاسم: "كنت أنا وعبد الله بن طاهر عند المأمون، وهو مستلقٍ على قفاه، فقال لعبد الله: يا أبا العباس، من أشعرُ الناس في زمانِنا ؟ فقال: أميرُ المؤمنين أعرفُ بهذا مني، قال: قلْ على كلِّ حال، قال: الذي يقول[2]:

أيا قبرَ معنٍ كنتَ أوَّلَ حُفرةٍ من الأرضِ خُطَّت للمكارم مَضجعا

قال أحمد: فقلت أشعرهم الذي يقول:

أشبهت أعدائي فصرتُ أُحبُّهم إذْ كان حظيَ منك حظِّيَ منهمُ

فقال المأمون أين أنتما من قول أبي نواس:

يا شقيق النفس مـنْ حَكَـــم نِمتَ عنْ ليلـى ولم أنَـــــــــمِ

1-الأصفهاني أبو الفرج: الأغاني، دار الفكر، بيروت، ج4، ص112.

2-ينظر: البيهقي إبراهيم بن محمد: المحاسن والمساوئ، دار صادر، ج1، 1790.

فهذه المناظرة تبدي عن أهمية الذوق الأدبي الخاص في الحكم على النص الشعري بعيداً عن المعايير النقدية التي خطَّها النقاد. ونلاحظ أن التذوق الأدبي أخذ مجراه الواسع في العصر العباسي، وبدا أثرُه واضحاً عندما أخذ يعتمد على الأسباب التي تدفع الأديب أو الناقد إلى الاستحسان والإعجاب أو الاستياء والنفور، ومن غير شكٍّ أنَّ الاتجاهَ إلى التعليل خليقٌ بذاته أنْ يسوقَ إلى التمييز والتقدير والمراجعة والتحديد ليصبحَ الحسُّ وسيلةً إلى الحكم[1].

وهذا الاتجاه نحو دراسة النص يحفز نشاط الأدباء نحو الإبداع، ويوسع إطار المناظرات الأدبية، فيكثر الشعراء والأدباء من عقد جلساتهم خاصة، كما شجَّع الحكام هذا النشاط الأدبي. وفي مجال الإحساس بقيمة الشعر الفنية وقرنها بصاحب الشعر دارت هذه المقابلة.

قال أبو العتاهية لابن مناذر: يا أبا عبد الله، كيف أنت في الشعر؟ فقال: أقول عشرة أبيات وأكثر وأقل، فقال أبو العتاهية: "ولكني أقول ما شئت، قال ابن مناذر: لو أردنا أن نقول : ألا يا عتبة الساعة ... البيت، لقلنا ولكن لا نفعل"[2].

لقد أمسك أبو العتاهية عن التمادي، وذلك لأنه عرف أن الصواب في موقف صاحبه، وتمثل موقف ابن مناذر في إحساسه بنقص الشاعرية عند أبي العتاهية مما جعله ينفي صفة الشعر الحقيقية عن شعره، وأبو العتاهية يرغب في الموسيقى الخفيفة والبحور السريعة القليلة التفاعيل، مع محاولته أن يجعل كل كلامه شعراً، ومع السرعة وعدم التأني تقلُّ قيمة المعاني وتضمحل، ذلك لأن الشعر يحتاج إلى جهد فني يتيح للشاعر السير في طريق الإبداع.

ومن مناظرات بلاط المأمون أيضا تقدمت إلى المأمون امرأة تشكو ظلم ابن العباس إليه بأبيات رقيقة، فلم يسعه إلا أن يعدها الإنصاف بأبيات رقيقة على الوزن والقافية، وكانت تلك الأبيات في خفتها وجودة الخاطر بها في ساعتها، سلاما على قلب تلك المرأة المظلومة، قال الشيباني: جلس المأمون يوما للمظالم، فكان آخر ما تقدم إليه امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى يحي بن أكثم، فقال يحي: وعليك السلام يا أمة الله تكلمي في حاجتك، فقالت[3]:

يا خير منتصفٍ يهدي له الرشد ويا إماما قد أشرق البلدُ

1-ينظر: مجلة جامعة بخت الرضا العلمية: المناظرات الأدبية في العصر العباسي الأول، ع12، شهر سبتمبر، العام 2014، ص114.

2-ينظر: المرزباني محمد بن عمران: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ص325.

3-ينظر: أحمد فريد الرفاعي: الكتاب عصر المأمون، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ص334.

تشكو إليك عميدُ القوم أرملةٌ عدى عليها فلم يترك لها سبدُ

وابتز مني ضياعي بعد منعتها ظلما وفرق مني الأهل والولد

فأطرق المأمون حينا، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد عني وقرح مني القلب والكبد

هذا آذان صلاة العصر فانصرفي واحضري الخصم في اليوم الذي أعد

والمجلس السبت إن يقضي الجلوس لنا ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد كان أول من تقدم إليه تلك المرأة المظلومة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: وعليك السلام، أين الخصم؟ قالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت إلى العباس ابنه، فقال لأحمد بن أبي طالب: خذ بيده ، فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها احمد بن أبي طالب: يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين، وانك تكلمين الأمير فاخفضي صوتك، فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها وأخرسه، ثم قضى لها برد ضيعتها وبحسن معاونتها وأمر لها بنفقة[1].

وفي إطار الحكم للشاعر ومنزلته الفنية ما حدّث به محمد بن صالح قال: "لما دخلت العراق وصرت إلى مدينة السلام سألت عمن بها من الشعراء المحسنين، وذلك في خلافة الأمين أو عند قتله، فقيل لي: قد غلب عليهم فتى من أهل البصرة يعرف بأبي نواس، وقد كنت سمعت بشيء عن شعره، أتاني به فتى كان يألفني من أهل الأدب فقلت له: هل تروي لأبي نواسكم هذا شيئا ؟ قال نعم، أروي له أبياتاً في الزهد وليس هو من طريقته، أنشدنيها آنفاً، قلت: وما هي؟ قال[2]: "أخي ما بال قلبك ليس ينقى"

قلت: أحسن والله فقال: أوَ لا أُنشدك أحسنَ من هذا قلت: بلى. فأنشدَني:

ساءك الدهرُ بشيءٍ ولما سرَّك أكثرْ

يا كبيرَ الذنبِ عفو الله من ذنبك أكبرْ

قلت: وقد والله أحسن وأجاد، وما ظننته إذا سلك غير طريقه يحسن هذا الإحسان فيه، فقال: أفما سمعت مرثيته للأمين؟ قلت : لا، فأنشدني:

طوَى الموتُ ما بيني وبين محمدٍ وليسَ لما تَطوي المنيَّةُ ناشرُ

1-المرجع نفسه، ص334.

2-المرزباني: الموشح، ج1، ص325.

فقلت : بحق ما غلَبَ هذا على أهل الأدب، وقدَّموه على غيره من الشعراء"

قال بشار:

من راقبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجتِه وفازَ بالطيباتِ الفاتِكُ اللّهِجُ

أخذ سلم الخاسر هذا المعنى وجاء به في أجود من ألفاظه، وأفصح وأوجز، فقال:

من راقبَ الناسَ مات غمَّاً وفازَ باللذَّة الجسورُ

فقال بشار حين قال بيته ذلك: ما سبقني أحد إلى هذا المعنى، ولا يأتي بمثله أحد، فلما قال سلم هذا البيت قال راوية بشار: صرت إليه فقلت: يا أبا معاذ، قد قال سلم بيتاً أجود من بيتك الذي كنت تعجب به، قال: وما هو؟ فأنشدته البيت، فقال: أوخ، ذهب والله بيتي، لوددت أن ولاءَه لغير آل أبي بكر الصديق فأقطِّعُه وثوبَهُ بهجوي. ومع أن بيت بشار فيه قوة وجزالة، إلا أن بيت سلم جاء أقرب إلى النفس، لما امتاز به من رقة وحسن وقع على الأذن، ولذا فهو أيسر على الألسنة، ومن هنا كان غضب بشار.

المحاضرة الخامسة: الرسائل الإخوانية:

لكلمة الرسالة معان ودلالات في معاجم اللغة العربية تخرج من الجذر (رسل)، ومن هذه المعاني التي تجتمع على دلالة واحدة تدور حول الانبعاث والانبساط والامتداد والاستمرار، حيث شيء بعد شيء في

رفق وسهولة وتتابع وتكرار، وهذا ما أكده أصل الكلمة في معجم مقاييس اللغة[1]. وعن اشتقاق مصطلح الرسالة والترسل يقول قدامة بن جعفر: "الترسل من تراسلت أترسل ترسلا، ولا يقال إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر، وراسل يراسل مراسلة فهو مراسل، وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يراسل به من بعد وغاب، فاشتق له اسم الترسل والرسالة من ذلك"[2].

وفي الاستعمال الأدبي هي تسمية واسعة لأي نص موجه إلى فرد أو جماعة ولها أغراض عديدة منها الوصف والدعوة والفخر، يرتبها الكاتب من حكاية إلى حال، من عدو أو صديق، أو مدح أو تقريض، أو مفاخرة بين شيئين، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى[3].

والترسل مصطلح أدبي يقوم على ترجمة ما يدور في العقل من كلام حول مواضيع معينة على شكل رسائل قد تكون ديوانية (رسمية) أو إخوانية أو أدبية أو سياسية، تصدر من كاتب يحاول أن يبسط من خلالها ما يريد على شكل أفكار متتابعة، يترجمها لكلمات يؤلف بينها لتكون جملا وفقرات بأسلوب فيه تؤدة وسهولة ووضوح من المرسل إلى المرسل إليه، وتعرف الرسالة بأنها فن قائم على خطاب يوجهه شخص إلى شخص آخر، أو يوجهه مقام رسمي إلى مقام رسمي أخر، أو ما يكتبه المرء إلى صديق أو أهل له، وتكون موجزة محدودة الموضوع سهلة الأسلوب خالية من التأنق اللفظي غالبا[4].

الرسائل الإخوانية:

هي رسائل يكتبها الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية وغيرها من موضوعات الحياة، ويطلق اسم الرسائل الإخوانية على جميع الرسائل غير الديوانية، كما لا يمكن الفصل بين الرسائل الإخوانية والرسائل الدينية فصلا تماما[5] ويرجع وجود هذا النوع من الرسائل إلى صدر الإسلام مع رسالة لرسول الله–صلى الله عليه وسلم– يعزي فيها معاذ بن جبل–رضي الله عنه– في ابن مات له، وهذا نصها: "من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل: سلام عليك، فإني إحمد الله إليك الذي لا اله إلا هو.

أما بعد، فعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر. ثم إن أنفسنا وأهلنا وموالينا من مواهب الله السَّنيّة، وعوارفه المستودعة، نمتع بها إلى أجل معدود، وتقبض لوقت معلوم. ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى.

1–ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة، مادة(وصى).

2–قدامة بن جعفر: نقد النثر، تحقيق طه حسين، دار الكتب المصرية ،القاهرة، مصر، ط1 ، 1983، ص95.

3–ينظر: القلقشندي: صبح الأعشى، إشراف سعيد عبد الفتاح عاشور، وزارة الثقافة، القاهرة، مصر، ط2، 1963، ج14، ص138.

4– ينظر: محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ج2، ص478.

5– ينظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج9، ص 78، 80.

وكان ابنك من مواهب الله السنية، وعوارفه المستودعة، متعك به في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير: الصلاة والرحمة والهدى، إن صبرت واحتسبت، فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين: أن يحبط جزعُك صبرَك، فتندم على ما فاتك، فلو تقدمت على ثواب مصيبتك، قد أطعت ربك وتنجزت موعوده، عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه. واعلم أن الجزع لا يرد ميتا، ولا يدفع حزنا، فأحسن العزاء، وتنجز الموعود، وليذهب أسفك ما هو نازل بك"[1].

وقد كان لنظام البريد في عهد عمر بن الخطاب –رضي الله– عنه عاملا مهما في الرقي بالرسائل الإخوانية وغيرها لسرعة تبادل ونشر الرسائل، ولعل ما وصلنا من رسائل عصر صدر الإسلام قليل لعدم عناية الأدباء بهذا النوع من الرسائل، وربما لعدم سمو هذه النوع إلى مرتبة الفن، وقد حفظ بعضها لارتباطها الشديد بالتاريخ، حيث دونت في كتب التاريخ لا في كتب الأدب.

والرسالة الإخوانية مفعمة بالعواطف والمشاعر، وفيها عتاب واعتذار، وتهان وغير ذلك من الموضوعات، فهي أوسع مجالا وأعظم قدرا، وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته، وتصور كثيرا من آراء الناس وعاداتهم وأخلاقهم وأحوال الأمة التي يعيشون فيها، من فرح وحزن، ولقاء ووداع، وزواج وولادة، وسفر وعودة منه، وغير ذلك من الموضوعات المرتبطة بالإنسان وأحواله الشخصية والاجتماعية.

وأسلوب هذا النوع من الرسائل كأسلوب غيرها يتطور بتطور العصر الأدبي، وهي أقرب إلى الأدب من الرسائل الديوانية، لاشتمالها على العواطف والخيال، وفيها مجال يبرز فيه الكاتب قدرته على الصياغة الإنشائية الأدبية [2]، ويرتقي بنصها إلى النص الأدبي الراقي في أسلوبه وألفاظه ومعانيه وأفكاره.

–موضوعاتها:

تدور أغلب موضوعات الترسل الإخواني حول الجانب الإنساني، وما يتصل بالصداقة والعلاقات الاجتماعية "كالرغبة في التلاقي للمسامرة أو المنادمة أو الإئتناس، وعبرت كذلك عن بعض العادات الاجتماعية التي شاعت بين الكتاب آنذاك كتبادل الهدايا من كتب وزهور وخيول وسيوف وغيرها. واتخذ الكتاب الرسالة الإخوانية أداة لتوجيه الشكر إلى إخوانهم لمعروف أسدوه إليهم، أو خير اختصوهم به أو معروف أحاطوهم به"[3].

ولم تقتصر على ما سلف ذكره، بل "تناولت موضوع الاعتذار باعتباره يمثل صورة من صور العلاقة المتبادلة بين الكتاب، فكان الكاتب يعتذر عن تلبية دعوة أو المشاركة في إحدى المناسبات ذاكرا الأسباب التي حالت دون تلبية دعوته. وعلى العموم فقد تناولت المواضيع التالية:

1- حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص79.

2- حسين غالب: بيان العرب الجديد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص182.

3- فوزي سعد عيسى: الترسل في القرن الثالث الهجري، ص36.

التوصية أو رسائل التواصي؛ يرسلها شخص لشخص آخر عنده جاه، يشفع عنده لشخص ثالث في أمر من الأمور التي تهمه، أو في قضاء حاجة من حوائجه، وكان هذا النوع من الرسائل مألوفا في زمن العباسيين، فقد كان الناس يضطرون إلى تسخير الجاه في سبيل قضاء الحوائج بوصفه شكلا من أشكال الكرم. إضافة إلى رسائل التعزية والمواساة، التي تدور حول الحث على الصبر والرضا بقضاء الله، والدعوة إلى عدم إظهار الجزع من المصائب، والتذكير بما يلقاه الصابرون من الثواب عند فقدان الأحبة...وكثيرا ما تتضمن دعاء للميت بالرحمة ولأهله بالصبر والأجر وطول البقاء.

وهناك نوع آخر وهو رسائل الهجاء ولكنها لم تلق رواجا، وقد اشتهر بعض الكتاب بسلاطة اللسان في كتاباتهم، ومن هؤلاء بشر بن أبي كبار البلوي، وكان كثير التعرض للوزراء والولاة وغيرهم من أعيان أهل العراق ومن رسائله في الهجاء كقوله: "أما بعد فإني رأيتك في أمر دينك متصنعا مخذولا وفي أمر دنياك فاجرا مثبورا، وفيك خصال لا تجتمع في مسلم إلا بسوء سريرة كبيرة، أو إضمار عظيمة...وإن في إيمانك لضعفا، وإن في نفسك لوهنا، وإن في صدرك لكبرا، وإن في قلبك لقساوة، وإن في معيشتك لإسرافا"[1]. دون أن ننسى رسائل السؤال عن المريض، فقد اعتاد الكتاب في السؤال عن المرضى أن يتمنوا لهم البرء والسلامة والأجر والثواب.

وليس هناك معايير صارمة أو قواعد ثابتة في هاته النوعية من الرسائل "فقد حاول النقاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكتاب في كل ضرب من ضروب الرسائل الإخوانية، ولكنهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع هذه المعالم بدقة"[2] ولعل هذا ما يميز الترسل الإخواني، ويجعله "أدخل في الأدب، وأقبل للتخييل والصور البيانية، والصنعة البديعية، تحتمل الاقتباس من المنثور والمنظوم، وتنافس الشعر في جل أغراضه"[3].

-نماذج من الرسائل الإخوانية:

ومن نماذج الرسائل الإخوانية: رسالة عبد الحميد الكاتب الإخوانية التي كتبها إلى أهله يعزيهم فيها عن نفسه يقول فيها:" أما بعد فإن الله عز وجل جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، وجعل فيها أقساما مختلفة بين أهلها، فمن ردت له بحلاوتها وساعده الحظ فيها سكن إليها ورضي بها، وأقام إليها، ومن قرصته بأظفارها وعضته بأنيابها وتوطأته بثقلها قلاها نافرا عنها، وذمها ساخطا عليها، وشكاها مستزيدا منها، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درّها أفاويق استحلبناها ثم شمست منا منافرة، وأعرضت منا متنكرة، ورمحتنا مولية، فملح عذبها وأمر حلوها، وخشن لينها، ففرقتنا علن الأوطان وقطعتنا عن الإخوان،

1- ينظر: محمود عبد الرحيم صالح: فنون النثر في العصر العباسي، ص104.

2- أحمد بدوي: أسس النقد عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، مصر، دط، 1964، ص32.

3- محمد مسعود جبران: في فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، دار المدار الإسلامي، ط1، 2004، مج2، ص150.

فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثلما تقربت، وأعقبت بالراحة نصيبا، وبالجذل هما، وبالأمن خوفا، وبالعز ذلا، وبالجدة حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتا، لا ترحم من استرحمها سالكة بنا سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء"[1] فالرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد الكاتب التي تميز بها في أسلوبه، ومعانيه، فألفاظه مختارة ليس فيها توعر ولا غريب وحشي، وفيها عذوبة وحلاوة، ومعانيه غزيرة ومرتبة لا غموض فيها ولا خفاء، بل واضحة والدلالة فيها مكشوفة، والكاتب يعنى بالترادف في أسلوبه ترادفا ينتهي إلى ازدواج واضح يؤكد المعاني بما يحمل من فواصل سجعية وموسيقية.

–رسالة ابن العميد:

ابن العميد:

هو أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب المعروف بابن العميد[2] يرجع أبو الفضل إلى أسرة فارسية من مدينة قُم الفارسية الشيعية[3] وأشارت الدراسات أنه زعيم مدرسة الصنعة[4] أشار الأصبهاني في كتابه رياض العلماء أن ابن العميد شيعي المذهب[5] كما أورد صاحب كتاب طبقات أعلام الشيعة ذلك، ودلّ على ذلك من خلال ما ذكره بأنه فاز بلقاء الحجة عند تهنئة أبيه بولادته في سامراء. لم تؤكد المصادر سنة ميلاد ابن العميد بدقة، ولكنها كلها أجمعت على أن تكون ولادته إما في السنة الأخيرة من القرن الثالث الهجري، أي سنة (299هـ) أو في السنة الأولى من القرن الرابع الهجري.

عمل وزيرا في عهد دولة بني بويه لركن الدولة أبي الحسن بن بويه الديلمي، فحمل أعباء الإدارة وخاض غمرات السياسة والحرب مع هذه الدولة، استمرت وزارته ثلاثة وثلاثين سنة[6] ولقب ابن العميد بألقاب كثيرة كلها تدل على رفعته وعلو شأنه منها الأستاذ والرئيس وابن العميد والجاحظ الثاني لشبه بينه وبين الجاحظ في العبارات والألفاظ والإطناب في الكلام[7].

1- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص479.

2-ينظر: الزركلي خير الدين: معجم الأدباء، 328.

3- أنيس المقدسي: تطور الأساليب النثرية، ج6، ص242 .

4- ينظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، ص205.

5-ينظر: الأصبهاني: رياض العلماء، ص27.

6- ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات، ص656.

7- ينظر: إبراهيم أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي، ص490.

كان ابن العميد على دراية واسعة بالفلسفة والنجوم، وكان كعبه عال في الرسائل فلم يدانه فيها أحد فذكر عنه انه قال: " بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد"[1].

ولم يعمر ابن العميد في هذه الدنيا طويلاً، إذ لم ينج من الأمراض اللعينة، فقد أصيب بالقولنج والنقرس، وكان كل واحد منهما متعباً له أكثر من الآخر، ومثلما اختلف في سنة الولادة، اختلف في سنة الوفاة ومكانها، فأورد ابن خلكان أنه توفي في بغداد سنة ستين وثلاثمائة(360هـ) [2] .

-نماذج من رسائله:

رسالة من ابن العميد إلى بعض إخوانه:

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب ورد إليه: "وصلَ ما وصلتني به، جعلني اللهُ فداك، من كتابك، بل نعمتك التامة، ومنتك العامة؛ فقرتْ عيني بوروده، وشُفيتْ نفسي بوفوده، ونشرته فحكى نسيم الرياضِ غبّ المطر، وتنفسِ الأنوارِ في السحر، وتأملتُ مفتتحه، وما اشتمل عليه من لطائف كلمك، وبدائعِ حكمك؛ فوجدته قد تحملَ من فنون البر عنك، وضروب الفضلِ منك، جِداً وهزلاً، ملأ عيني، وعمر قلبي، وغلب فكري، وبهر لبي؛ فبقيتُ لا أدري: أسموطُ ذرّ خصصتني بها، أم عقود جوهر منحتنيها؟ كما لا أدري أبكراً زففتها فيه، أم روضةً جهزتها منه؟ ولا أدري أخدوداً ضرجت حياء ضمنته؟؛ أم نجوماً طلعت عشاء أودعته؟ ولا أدري أَجِدك أبلغ وألطف؟ أم هزلك أرفع وأظرف؟ وأنا أوكل بتتبعِ ما انطوى عليه نفساً لا ترى الحظَّ إلا ما اقتنته منه، ولا تعد الفضلَ إلا فيما أخذته عنه، وأمتع بتأمله عيناً لا تقر إلا بمثله، مما يصدر عن يدك، ويرد من عندك، وأعطيه نظراً لا يمله، وطرفاً لا يطرفُ دونه، وأجعله مثالاً أرتسمه وأحتذيه، وأمتع خلقي برونقه، وأغذي نفساً ببهجته، وأمزج قريحتي برقته، وأشرح صدري بقراءته، ولئن كنت عن تحصيلِ ما قلته عاجزاً، وفي تعديد ما ذكرته متخلفاً؛ لقد عرفتُ أنه ما سمعت به من السحرِ الحلال[3]".

ومن رسائله في التهنئة ما أرسله إلى عضد الدولة يهنئه بالولدين:

"أطالَ اللهُ بقاء الأميرِ الأجلِّ عضد الدولة، دام عزه وتأيده، وعلوه وتمهيده، وبسطه وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزيده، وهنأه ما احتظاه به على قربِ البلاد، من توافرِ الأعداد، وتكثرِ الإمداد، وتثمرِ الأولاد، وأراه من النجابة في البنينِ والأسباط، ما أراه منِ الكرمِ في الآباء والأجداد، ولا أخلى عينه من قُرة، ونفسه من مسرة، ومتجدد نعمة، ومستأنف مكرمة، وزيادة في عدده، وفسحٍ في أمده، حتى يبلغ

1- بطرس البستاني: دائرة المعارف، ج1، ص617.

2- ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص110.

3- الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب، ج4، ص31.

غاية مهله، ويستغرق نهاية أمله، ويستوفي ما بعد حسنِ ظنه، وعرفه اللهُ السعادَة فيما بشر عبده من طلوعِ بدرينِ هما انبعثا من نوره، واستنارا من نوره، وحفا بسريره، وجعل وفدهما متلائمين، وورودهما توأمين، بشيرينِ بتظاهرِ النعم، وتوافرِ القسم، ومؤذنينِ بترادف بنين يجمعهم منخرقُ الفضا، ويشرقُ بنورهم أفقُ العلا، وينتهي بهم أمد النماء إلى غاية تفوتُ غاية الإحصاء، ولازالت السبلُ عامرة، والمناهلُ غامرة، بصفائحِ صادرهم بالبِشرِ وأملهم بالنيل"[1].

ونلاحظ في هذه الرسالة أموراً لها أهميتها في مجال الأدب منها: فهذه الرسالة تعد من الرسائل الإخوانية لابن العميد، وإن ظهرت بمظهر الرسالة الرسمية، حيث أنه بدأ بالدعاء للأمير بأنواع مختلفة من الأدعية، والتي تظهر مكانة عضد الدولة عند ابن العميد.كما بدا السجع واضحاً وإن كان أكثر سجعه منتهياً بالهاء أو التاء، وأكثر ابن العميد من الجمل المتوازنه، والتي تظهر فيها الكلمات المترادفه أحيانا، وتحمل هذه الرسالة الكلمات المختارة والتي تتناسب مع المعنى ومع الموقف.

رسالة إلى صديقه أبن أبي عبد الله الطبري:

"سألني عمن شغفني وجدي به، وشغفي حبي له، وزعمت أُني لو شئتُ لذهلتُ عنه، ولو أردتُ لاعتضتُ منه زعما، لعمر أبيك، ليس بمزعمٍ كيف أسلو عنه، وأنا أراه، وأنساه وهو لي باتجاه هو أغلب علي، وأقرب إلي، من أن يرخي لي عناني، أو يخليني واختياري، بعد اختلاطي بمسلكه، وانخراطي في سلكه، وبعد أن ناط حبه بقلبي نائط، وساطه بدمي سائطاً، وهو جارٍ مجرى الروحِ في الأعضاء، متنسماً تنسم روحِ الهواء، إن ذهبتُ عنه رجعت إليه، وإن هربتُ منه وقعتُ عليه، وما أحب السوء عنه مع هناته، وما أوثر الخل ومنه مع ملاته؛ هذا على أنه إن أقبلَ علي بهَتني إقباله، وإن أعرض عني لم يطرقني خياله، يبعد عني مثاله، ويقرب من غيري نواله، ويرد عيني خاسئه، ويثني يدي خاليه، وقد بسط آفات العيونِ المقلبه وصدق مرامي الظنونِ الكاذبة، وصله ينذر بصده، وقربه يؤذن ببعده، يدني عندما ينزح، ويأسو مثلَ ما يجرح، محالته أحوال، وخلته خلال، وحكمه سجال، الحسن في عوارفه، والجمالُ من منائحه، والبهاء من أصوله وصفاته، والسناء من نعوته وسماته، اسمه مطابقٌ لمعناه، وفحواه مطابقٌ لنحواه، يتشابه حالاه، ويتضارع قطاره، من حيثُ تنساه يستدير"[2].

يبدو أن العلاقة بين ابن أبي عبد الله الطبري والأستاذ الرئيس علاقة دامت مدة طويلة، إذ تبادلا فيها الكتب والرسائل .وما رسالة ابن العميد هذه إلا جواب لسؤال من ابن أبي عبد الله الطبري، وجاءت هذه

1- الحصري القيرواني إبراهيم بن علي: زهر الآداب، ج4، ص195 .

2- الحصري القيرواني إبراهيم بن علي: زهر الآداب، ج4، ص1066 .

الرسالة من صديق لم يصرح به ابن العميد، ولا ندري ما هو الغرض من إخفائه؛ هل هو غرض التعمية، أم غرض آخر، ليس من السهل على احد أن يرجح هذا أو ذاك، لأن أقدر من يحددها هو صاحب النص، وما الذي أراده هذا بقي من أسرار نفسه .ولكن نستطيع أن نجزم بأن ابن أبي عبد الله الطبري كان عارفاً له، متصلاً به بطريقة أو بأخرى، وإلا ما كان ابن العميد يرسل هذه الرسالة ويفيض بها مشاعره إلى هذا الشخص، وتعّلقه به هذا التعّلق، فقد عده بمثابة الهواء الذي يستنشقه عند التنفس، وبالغ وجعله بمثابة الروح، فإذا ذهبت تكاد روحه أن تذهب، فقال: (وهو جارٍ الروح في الأعضاء، متنسم تنسّم الهواء).

ومن الناحية الفنية في بناء الرسالة تظهر زخرفة السجع جلية في أكثر من موضع، نذكر منها: (لنهلت عنه، لاعتضت منه)، (أراه، اتجاه) (نائط، سائط).

وجاءت هذه القطع بمثابة فواصل موسيقية كدأبه في أغلب رسائله، ويخفت ضوء الجناس في الرسالة بشكل أوضح، إذ لا نكاد نرى بريقه إلا في موضع أو موضعين من الرسالة، مثل: (مسلكه، سلكه) (نائط،سائط) ونحس برونق الطباق، في أكثر من موضع منها : (ذهبت، رجعت) (أقبل علي، أعرض عني) (قربه،بعده) (يأسو، يجرح) و(صله، صده).

ويوظف الترادف في أكثر من عبارة، منها: (أسلو، أنساه) (خلال، سجال) (مطابق، موافق) (يتشابه، يتضارع. والرسالة عبارة عن مدح مجازي لصديق المجاز، فتارة يشبه صديقه بالروح وأخرى بالهواء، وثالثة بالضوء والقمر اللذين يرسلان النور للبشرية.

ومن خلال رسائل ابن عميد نستطيع أن نخلص إلى جملة من الخصائص أهمها:

-تحتوي رسائله المقدمة والخاتمة ونادرا ما تكون رسائله خالية من المقدمة

- الاقتباس من القرآن الكريم حرفيا ومعنويا، وتوظيفه لبدائع الحكم.

-كثرة عبارات المدح والثناء لصاحب الكتاب.

-التذكير بالنصح والإرشاد، ويبدو متميزا في العتاب واللوم كتميزه أيضا في المدح والتعبير عن العواطف الجياشة.

-خلو رسائله من التكلف، غذ يفهم القارئ المراد من كتابته دون عناء.

-التأنق في الأسلوب الذي يعطي لنصوصه جمالا وانسيابا.

-لا تغفل رسائله عن ضروب المحسنات البديعية كالسجع والجناس والطباق.

- العناية الدقيقة بانتقاء الألفاظ.

المحاضرة السادسة: الرسائل الديوانية..

-الرسائل الديوانية:

هي رسائل تصدر عن الديوان نسبة إليه، وتسمى كذلك بالرسائل الرسمية، موضوعاتها متنوعة تشمل الرسائل التي تصدر عن تولية العهد، وتولية القضاة، والولاة، وكل ما يتصل بشؤون الرعية، كما تشمل الرسائل التي تصدر عن الخليفة أو الأمير أو الوزير إلى من هو مثله في مختلف الموضوعات التي تتضمن

العهود والتقاليد وانتقال الخلافة، والدعوة إلي الطاعة، والحث على الجهاد وما إلي ذلك من موضوعات ذات طابع رسمي وإداري.

وترجح كتب التاريخ أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من أنشا ديوان الرسائل، ثم انتشر في سائر الولايات الإسلامية، وأن أول من تقلدوا هذا الديوان كانوا عربا خلص، مثل عبيد الله بن أوس، ويحي بن يعمر، وروح بن زنباع وغيرهم، ويذهب بعض الباحثين إلى أن ديوان الرسائل عربي النشأة وليس بالفارسي ولا باليوناني، ثم نافس الأعاجم العرب في هذا الميدان، فتعلموا العربية وأتقنوها، ومنهم من تقلد ديوان الرسائل: كسالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك، وتلميذه عبد الحميد الكاتب الذي تقلد ديوان الرسائل لمروان بن محمد الأموي، فديوان الرسائل نشأ نشأة عربية خالصة، لكن في أثناء سيره أمدته روافد فارسية ويونانية[1].

وهذه الرسائل يتبادلها الخلفاء والولاة وقادة الجيش، تصدر عن دواوين الحكم، وتعنى بأمور الدولة وشؤونها السياسية، يراعى فيها دقة المعلومات، وتهدف إلى نشر الحقائق بأسلوب هادئ واضح بعيد عن الزخرفة اللفظية. كما تتطلب هذه الرسائل ثقافة واسعة في الأدب واللغة والتاريخ، وحفظ عدد من الشواهد الشعرية والنثرية والأقوال والحكم، وآيات القران الكريم والحديث النبوي الشريف، وصارت منذ العصر الأموي فنّ اختص به بعض الكتاب وتفرغوا له، واشتهروا به منهم: عبد الحميد الكاتب وابن العميد، والصاحب بن عباد.

-موضوعاتها:

تطرقت الرسائل الديوانية إلى موضوعات كثيرة ومتنوعة، تتناول مختلف شؤون الدولة وما يتعلق بها من تولية الولاة، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود، وأخبار الولايات وأحوالها، وعهود الخلفاء لأبنائهم ووصاياهم، ووصايا الوزراء والحكام في تدبير شؤون الدولة. كما تضمنت أيضا ما يكتبه كتّاب الدواوين في التهاني بما تحقق من فتوحات وظفر على أعداء المسلمين، ورسائل التهنئة بالفتوحات الجديدة والانتصارات.

كما تضمنت الرسائل الديوانية أوامر الخلفاء بتولية من يختارونهم من الولاة أو عزلهم، وكانت هذه الرسائل أشبه بمنشورات يوجهها الكاتب باسم الخليفة إلى عماله في الأصقاع المختلفة، ويتصل بالرسائل الديوانية ما كان يكتبه الكتّاب إلى الولاة بتوجيهات من خلفائهم يذكرونهم فيه بمسؤوليتهم في المحافظة على الأمن، ومتابعة شؤون وأحوال الرعية والعمل على استقرار الأمور" [2].

1- ينظر: حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص 68.

2- فوزي سعد عيسى: الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، 1991، ص27.

ضبط الكتّاب والأدباء القواعد التي ينبغي للكتّاب أن يسيروا عليها في كتابة رسائلهم، فتفننوا حينئذ طويلا في التحميدات التي تصدر بها الرسائل، وتذكر المصادر أن هارون الرشيد هو أول من أمر بافتتاح الرسائل بالبسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وهناك رأي يفيد أن وزيره يحي البرمكي هو من أمر بذلك.

ومن نماذج الترسل الديواني رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب، وهي رسالة عامة موجهة إلى هذه الطائفة التي أصبح لها كيان في حياة الدولة، يقول فيها: "أما بعد. حفظكم الله يا أهل هذه الصنعة، ووفقكم وأرشدكم، فإن الله-عز وجل- جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين- صلوات الله عليهم أجمعين- سوقا، وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم، فجعلكم -معشر الكتاب- في أشرفها صناعة، أهل الأدب والمروءة والروية، وذوي الأخطار والهمم وسعة الذوق في الأفضال والصلة، بكم ينتظم الملك ويستقيم للملوك أمورهم، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم، ويجمع فيهم، وتعمر بلادهم، يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه، والوالي في القدر السني من ولايته، ولا يستغني عنكم منهم أحد ولا يوجد كاف إلا منكم...تنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدؤوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، وأجيدوا الخط، فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم، والكاتب بفضل رأيه، وشرف صناعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره ويناظره، ويفهم عنه ويخاف سطوته، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده، من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا، ولا تعرف خطأ ولا صوابا، إلا بقدر ما يصيرها إليه سائسها أو صاحبها الراكب لها، فأدقوا-يرحمكم الله- النظر، واعملوا فيه الروية والفكر، تأمنوا ممن صحبتموه -بإذن الله- النبوة والاستثقال والجفوة، ويصيروا منكم إلى الموافقة وتصيروا منهم إلى المساواة والشفقة، إن شاء الله ولا يضعفن نظركم في الحساب فإنه قوام كتّاب الخراج منكم"[1].

بدأت الرسالة بالدعاء، ثم يأتي عرض الرسالة، وأخيرا ختمها بلفظ المشيئة وهو مما تختتم به الرسالة وقد عني عبد الحميد في أسلوب الرسالة بانتخاب ألفاظه ودقة معانيه شأنه شأن كل بليغ يحرص على جودة الصياغة وحسن الأداء، ولم يكن يحتفل بالسجع ويلتزمه، ولكنه كان ممن يميلون إلى التوازن بين العبارات والألفاظ، ويستعين بالترادف والتكرار والتقابل. ونلاحظ أيضا أن الكاتب لجأ إلى التصوير[2].

1- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي دار المعارف، القاهرة، مصر، ط20، 2002، ص 475.

2- ينظر: ينظر: محمد يونس عبد العال: في النثر العربي، ص258.

ومن خصائص أسلوبه العامة كما يرى طه حسين: أنه كان يقسم كلامه إلى فصول، فكل رسالة من رسائله تنقسم إلى أجزاء، يؤدي في كل جزء فكرة ومعنى. وهو لا ينتقل من فكرة إلى فكرة إلا إذا استطاع أن يستريح ويتنفس. فأنتم إذا قرأتم فقرة يمكنكم أن تقفوا وتستريحوا عند آخرها، وأن تطووا الكتاب يوما أو أكثر، ثم تعودوا إلى القراءة، دون أن تشعروا بانقطاع في المعنى. وهذا النوع من تقسيم الكلام نوع يوناني أيضا، من خصائص النثر اليوناني القديم[1].

خصائص بناء الترسل:

عرف البناء الهيكلي للرسالة تطورات مختلفة خلال مسيرته في تاريخ الأدب العربي، منذ رسالة عبد الحميد إلى الكتاب إلى موسوعة أبي العباس القلقشندي مرورًا بغيرهما من المؤلفات التي نظَّرت لهذا اللون الأدبي، وعن هذا الاختلاف يقول الكلاعي: "ونظرت-أعزك الله- في صور الرسائل واستفتاحاتها فوجدتها أيضًا تختلف"[2] ومقدمات الرسائل تشتمل عادة بعد البسملة والصلاة على النبي، وتختلف استفتاحات الرسائل، ويختار الاستفتاح المناسب لمنزلة المرسل إليه فقد يذكر مقدمًا عن المرسِل بصيغة: لفلان من فلان. وقد يؤخر ذكره فيكتب: من فلان لفلان، وتكون في حالات أخرى بإيراد كنية المرسل إليه أو رتبته، غير أن كل الاستفتاحات، كأن يراعى فيها الجودة والحسن والبراعة لأنها تقع في البداية وهي أول ما يطرق السمع من الكلام، فيكون داعية للانشراح، وإثارة انتباه المتلقي. وقد كان يُلْجَأُ إلى المنظوم، فتُبدأُ الرسالة بأبيات شعرية لكاتبها أو لغيره تدل على المضمون العام لها، وتختصره في كلماتها، وكثيرًا ما يلجأ الكتّاب إلى الإشارة إلى غرض الرسالة في مطالعه، ومقدماتها.

وفي المضمون ينتقل كتاب الرسائل إلى المراد من رسائلهم وبحسن تخلص لِطَرْقِ الموضوع الذي يريدون معالجته في رسائلهم، وغالبًا يقع حسن التخلص بصيغة: أما بعد وهي وقفة بين الابتداء والشروع في الموضوع المراد ذكره في الرسالة، وقد تنوعت المضامين في الرسائل بنوعيها الإخواني والديواني، ومست مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية، فكان كتّاب الدواوين يكتبون بتولية القادة والقضاة والأمراء، ويكتبون بمناسبة نصر جيوش المسلمين والتهنئة بذلك.

- نماذج من الرسائل الأندلسية:

من هذه الرسائل ما كتبه عبد الرحمن الداخل إلى رجل خارج عليه يسمى سليمان الأعرابي، حيث يدعوه بالرجوع عن غروره ويهدده بالبطش إن هو لم يستجب لدعوته يقول في هذه الرسالة:" أما بعد فدعني

1- ينظر: طه حسين: من حديث الشعر والنثر، ص52.

2-آمنة الدهري: الترسل الأدبي بالمغرب النص والخطاب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية،المغرب،ط1، 2003،ص381.

من معاريض المعاذر، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدَّنَّ يدا إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة،أو لألقينَّ بنابها على رضف المعصية نكالا بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد"[1].

وكان بعض الثائرين على الدولة قد وجه عددا من رسائل التهديد لأمراء الأندلس ومن ذلك تلك الرسالة التي بعث بها عبد الرحمن الجليقي، وهو من الخوارج أيام بني أمية بالأندلس، إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن عندما علم انه جهز حملة عسكرية ضده، يقول فيها:" بلغني أن هاشما خرج إلى جهة الغرب، ولست أشك أنه أطمعه في أخذ الثأر مني كوني في حصن مغلق، وبالله لئن جاز لبلة إلي لأضرمنّ بطليوس بالنار ثم أعود إلي حالي الأول معك"[2]

ومن الرسائل السياسية أيضا التي تتسم باللطف تلك الرسالة التي بعث بها الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى إمبراطور الروم تيوفيلوس ويستدل من هذه الرسالة على ما انطوت عليه رسالة إمبراطور الروم التي يطلب فيها من الأمير إقامة علاقات ودية وصداقة قوية بينهما لتكون امتدادا للصداقة التي كانت بين أسلافهما زمن الدولة الأموية في المشرق، ويعبر عن أسفه وحزنه الشديد لما حل ببني أمية في المشرق من قتل وتشريد، ويهاجم الخلافة العباسية، ويعرض لسوء حكم بعض الخلفاء العباسيين وانحرافهم عن مصلحة رعيتهم.

وقد رد عليه الأمير عبد الرحمن برسالة مماثلة، يذكر له فيها انه يرغب في مودته وصداقته، وأنه يسعى لإحياء ذكر المودة التي كانت بين أسلافهما حيث يقول: " وأما ما رغبت من مودتنا وأحببته من مصادقتنا، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه، بما كان عليه أولوك لأولينا، فقد رغبنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا وان نتمسك من ذلك بما كان عليه سلفنا، وما لم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به، ويتحاضون عليه، ويحفظه بعضهم لبعض، ويشدون أيديهم به"[3].

وقد كثر كتاب الرسائل في عصر الطوائف، وصار في كل بلاط، أو قصر، أو دار حكم في مدينة أو مقاطعة في حاجة إلى رسوم السلطة، وأبهة الملك، ومن هؤلاء الكتاب في هذه المرحلة ابن برد الأصغر كاتب معن بن صمادح أمير المرية، وأبو محمد بن عبد البر كاتب مجاهد العامري وابنه علي، وكانوا في دانية بشرق الأندلس، وأبو المطرّف بن المثنى كاتب المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة. ولابن أيمن رسالة كتبها عن المتوكل المذكور إلى يوسف بن تاشفين أمير المغرب يستنجد به باسمه وباسم الأندلس كلها ضد ألفونس ملك قشتالة وغيره من ملوك نصارى الشمال الطامعين، قال فيها: " ...لما كان نور الهدى دليلك وسبيل الخبر سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام

1- ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر وتحقيق ج. س. كولانو أ. ليفي بروفنسال، ج2، ص85.

2-ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الإله أنيس طباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، لبنان، 1957 ، ص109.

3-فايز عبد النبي فلاح القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص126.

أعزّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما أعضل من الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء. فقد كانت طوائف العدو المطيفة بها –أهلكهم الله–عند إفراط تسلطها واعتدائها، وشدة كلبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستزال بالأموال..." [1]

ولأبي المطرف رسالة كتب بها عن ابن هود فيها عقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء للخليفة العباسي ببغداد المنتصر، وفيها البيعة لنفسه، ولابنه وليا للعهد من بعده جاء فيها:" الحمد لله الذي جعل الأرض قرارا، وأرسل السماء مدرارا، وسخر ليلا ونهارا، وقدّر آجلا وأعمارا، وخلق الخلق أطوارا، وجعل لهم إرادة واختبارا، وأوجد لهم تفكرا واعتبارا، وتعاهدهم برحمته صغارا وكبارا. نحمده حمد من يرجو له وقارا، ونبرأ ممن عانده استكبارا، وألحد في آياته سفاهة واغترارا.

وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجارا، السامي فخارا، رفع الله من شريعته للأمة منارا، وأطفأ برسالته للشرك نارا، حتى علا الإسلام مقدارا، وعز جارا ودارا، وأذعن له الكفر اضطرارا، واستسلم ذلة وصغارا، فمضى وقد ملأ البسيطة أنوارا، وعمها بدعوته أنجادا وأغوارا، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة وائتمارا..."[2]

وتستمر الرسالة على هذه الصورة من العناية والأناقة والصنعة الفنية، واستعراض المقدرة البيانية، واللجوء إلى الأسلوب المسجوع.

وكثرت الرسائل الأدبية في التراث الأندلسي، وتعددت أغراضها، وصدرت رسائل أدبية تعالج جوانب ذات علاقة بالخصوصية الأندلسية مثل الرسائل التي تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب، وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها، والرسائل التي تقال على لسان الأزهار والأنوار وما يخص الطبيعة الأندلسية الفاتنة، ومن أسماء الكتاب المشهورين: ابن شُهَيد ورسالة التوابع والزوابع، وابن زيدون والرسالة الهزلية، وأبا الحسين سراج بن عبد الملك، وابن أبي الخصال في الرسائل الزرزورية، وابن خفاجة في وصف الطبيعة، وابن حزم في طوق الحمامة والكلام على الحب والمحبين.

وعرف من آل برد في الأدب والكتابة والخدمة السلطانية اثنان هما أبو حفص أحمد بن برد الأكبر، وحفيده أبو حفص أحمد الذي عرف بابن برد الأصغر(450هـ) الذي اشتهر برسائله السياسية والأدبية والإخوانية ومن أشهر رسائله الأدبية رسالة عقدها للمفاضلة بين السيف والقلم، ورسالة النخلة، ورسالة أُهب الشاء. وهذا مقتطف من رسالته في السيف والقلم: " أما بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه، والصلاة على خاتم أنبيائه، فإن التسابق بين جوادين سبقا في حبله، وقضيبين نسقا في تربه، والتحاسد بين نجمين، أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق، والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامة، وبارقتين توضحتا من غمامة

1-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص221.

2- المرجع نفسه، ص223.

لأحمدُ وجوه الحسد- وإن كان مذموما مع الأبد-...وأن السيف والقلم لما كانا مصاحبين يهديان إلى القصد من بات يسري إلى المجد، وسلّمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لساميات المراتب، وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرّى إليه، ويجمعان شمل الفخر لمن تأشب عليه، ووسيلتين يرشفان العلا فم عاشقها، ويبسطان في وصال المنى يد وامقها، وشفيعين لا يؤخر تشفيعهما، ومجمعين لا يفرق تجميعهما، جررا أذيال الخيلاء تفاخرا، وأشما بأنف الكبرياء تنافرا، وادّعى كل واحد منهما أن الفوز لقدحه، وأن الوري لقدحه، وأن الدرّ من أصدافه، وأن البكر من زفافه، وأن البناء من تشييده، وأن الملاء من تعضيده، وأن كباء الثناء موقوف على مجامره، وأن خطيب الفخر محبوس على منابره، وأن حلل المآثر من نسيجه، وان أفراد المفاخر من تزويجه.

وحين كشف الجدال قناعهن ومد الخصام ذراعه، وهز الإباء من عطفه، وأشم الأنف من أنفه، قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخصال، ويصف كل واحد منهما جلال نفسه... [1]

وتستمر الرسالة طويلا ليقدم كل من القلم والسف حججه على التناوب، وشواهده على السبق والتفوق، وتنتهي الرسالة بقطعة شعرية يصل منها الكاتب إلى غايته العلمية وغرضه الشخصي، وهو مدح أبي الجيش مجاهد والثناء عليه بحيازته البراعة في السيف والقلم معا.

المحاضرة السابعة: المقامة وأهم عناصر بنيتها مقامة للهمذاني أو الحريري...

-تمهيد:

لقد خطا النثر العربي في العصر العباسي خطوات جبارة، وذلك بفعل عدة عوامل ساهمت في رقيه وازدهاره، إذ شجع الخلفاء الحركة العلمية وعملية الترجمة والنقل من الأمم الأخرى، فاتسعت دائرة الفنون واستُحدثت فيها ألوان جديدة، فظهر إلى الوجود ما عرف حينها بفن المقامة، هذا الفن الذي أثرى الفنون النثرية والأنواع المعروفة آنذاك.

1- ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن الجزيرة، ج1، ص523.

ومصطلح المقامة في معاجم اللغة عند العرب يحمل عدة معان أشهرها: المجلس، الحديث، الخطبة، الجماعة... يقول ابن منظور: "المَقَامُ والمَقَامَةُ الموضع الذي تقيم فيه، والمِقَامَةُ بالضم الإقامة، والمِقَامَةُ بالفتح: المجلس والجماعة من الناس"[1]. ولقد وردت في قول الشاعر العربي لبيد بن ربيعة العامري:

عفّت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

ومعنى مقامها في البيت الشعري الموضع، واستعملها زهير بن أبي سلمى بمعنى السادة في قوله:

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل[2].

والملاحظ من التعريفات اللغوية لمصطلح المقامة أن المقامة هي المجلس الذي يجتمع فيه الناس لسماع ما يدور فيه من حديث، وأخبار، وقصص، وأشعار، ثم تطور هذا المعنى عبر العصور الأدبية حتى أصبح في القرن الرابع الهجري يطلق على فن معين قائم بذاته له قواعده وأصوله على يد بديع الزمان الهمذاني.

والمقامة في الأصل المجلس، ثم أطلقت على ما يحكى في جلسة من الجلسات على حكاية ذات أصول فنية، وفي الاستعمال الأدبي: هي قصة قصيرة خيالية، أنشئت بعبارات مسجوعة غالبا، محلاة بأنواع البيان والبديع، يسودها حوار درامي تحتوي على مغامرات، يرويها راو عن بطل، قد يكون هذا البطل شجاعا يقتحم أخطارا وينتصر فيها، وقد يكون ناقدا اجتماعيا أو سياسيا أو فقيها متضلّعا في مسائل الدين أو مسائل اللغة، لكنه في كل الحالات تقريبا متسول ماكر ولوع بالملذات مستهتر، يحتال للحصول على المال ممن يخدعهم، ثم هو دائما أديب يجيد في أسلوبه عن بديهة وارتجال[3].

يدور موضوع المقامة حول حدث واحد متخيل، وشخصياتها الثانوية محدودة، ويؤدي دور البطولة فيها بطل محتال جواب أفاق، ويشاركه راوية يتعرف إليه إثر كل مغامرة ويرويها عنه، وتقع أحداثها في حدود مدينة أو منطقة واحدة، وفي زمن لا يتجاوز مقدار يوم وليلة، وهي بذلك تعد عملا أدبيا يتخذ القالب القصصي طابعا عاما، ولغة المقامة تميل إلى السجع، ولها راو وبطل[4]».

-جذور فن المقامة:

اختلف النقاد ومؤرخو الأدب في تحديد الجذور التاريخية لفن المقامة، فهي وإن ظهرت متكاملة على يدي بديع الزمان، فقد سبقتها إرهاصات فنية أشار إليها الحصري القيرواني، فذكر أن بديع الزمان ألف هذه المقامات معارضة ومحاكاة لأحاديث ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن، الذي أغرب بأربعين حديثا، استنبطها من ينابيع صدره، وأنتجها من معادن فكره، ثم أبداها للأبصار والبصائر، وأهداها إلى الأفكار

1-ابن منظور: لسان العرب م12، ص498.

2- عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (دت)، ص476.

3- ينظر: مارون عبود: أدب العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، دط، 2014، ص235.

4- سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي النثر، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان،الأردن، ط1،2011، ص127.

والضمائر، في معارض حوشية، وألفاظ عنجهية، فعارضه البديع بأربع مئة مقامة تذوب ظرفا وتقطر حسنا[1].

ووازن شوقي ضيف بين أحاديث ابن دريد ومقامات الهمذاني، فذكر أن ما رواه القالي في أماليه يدور غالبا حول حكايات عربية قديمة، في حين تدور المقامات حول التسول والكدية، غير أنهما ألّفتا لغاية واحدة وهي تعليم الناشئة اللغة[2]. وذهب الثعالبي إلى أن ابن فارس(ت390ه) يعدّ من المصادر المهمة التي تأثر بها بديع الزمان الهمذاني حين أنشأ مقاماته، فأشار إلى تلمذة البديع له[3].

– مؤثرات كتابة المقامة:

أ– مؤثرات فنية: هي قصص الوعاظ وأحاديث الأعراب التي تقوم على الكدية ووصف الجوع والفقر، والحكايات التي سجلها الجاحظ في غير كتاب من كتبه، وكلها تدور حول البخلاء والمكدين واللصوص والظرفاء والشطار.

ب– مؤثرات اجتماعية: هي عصر بديع الزمان الهمذاني الذي كثر فيه أهل الكدية، وظهر الساسانيون، وهم طائفة تنسب إلى ساسان أحد أبناء فارس، يقال: إن أباه حرمه من الملك، فهام على وجهه محترفا الكدية، وقد صورت المقامات حياة هؤلاء الأدباء الذين كانت لهم مكانة أدبية في ذلك العصر، وهذا يعني أن بديع الزمان قد ابتكر فن المقامة في إطار هذه المؤثرات[4].

–المقامة عند بديع الزمان الهمذاني(398هـ):

المقامة كتابة يغلب عليها السجع وحوشي الألفاظ وغريبها، إضافة إلى غناها بالصور البيانية والمحسنات البديعية، والهدف الرئيسي من تأليفها هو تعليم الناشئة غريب اللغة وفنون القول، إضافة إلى كونها وسيلة ناجعة من وسائل النقد الاجتماعي، لمعالجة بعض الأمراض التي تفشت في عضد الدولة الإسلامية، وذلك في إطار من المغامرات الهزلية المضحكة[5].

راوية المقامات عند الهمذاني هو عيسى بن هشام الذي يستهل المقامات بعبارة (حدثنا عيسى بن هشام) وهو رجل أسفار وترحال وتجارة واحتيال، يتحدث عن اغترابه ومصادفته لأبي الفتح الإسكندراني بطل هذه المقامات، وهو رجل علم وثقافة، يقول الشعر، ويسلك أوعر المسالك في اللغة والأدب والنقد،

1–ينظر: الحصري القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط4، دت، ص307.

2–شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط8، 1960، ص248.

3–الثعالبي عبد الملك بن محمد: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر،تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط1،1979، ص463.

4–سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي النثر، ص229.

5– محمد التنوجي: المعجم المفضل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1،1993، ص817.

يحتال على دهره القاسي بشتى الطرق، فتارة يكون خطيبا، وتارة مشعوذا، وقد حمله زمنه القاسي على هذا السلوك، فتصعلك وتسول وامتهن الكدية وتجول في مختلف البلدان وتقلب مع تقلبات الزمان[1].

تأخذ المقامة شكل القصة الفنية غالبا، وتقوم على السرد والوصف وتحليل الشخصيات، وهي تخلو من العقدة بالمعنى الفني، بل تقوم على الأزمة التي تجد حلا سريعا، ومن ثم يغلب عليها الإمتاع والتشويق[2].

يستخدم الهمذاني في مقاماته الشعر، إما يقتبسه أو ينشئه هو بحد ذاته، و"شعره سهل واضح المعاني – في الغالب– يخالف لغة نثر المقامات في أنه لا يسايرها في الألفاظ الغريبة التي كثرت في بعضها، ويتسم شعره أيضا بالتصوير بما فيه من قدرة على الوصف وإبراز للحركة. ويعتمد على الأوزان الخفيفة والمجزوءة، وذلك حتى تناسب جو الفكاهة ويسهل على الأذن استماعها وأغلب شعره مقطوعات قصيرة»[3].

المقامة عند الحريري:

صرح الحريري القاسم بن علي بن محمد بن عثمان(ت516ه) أنه كتب مقاماته معارضة لمقامات بديع الزمان الهمذاني الذي كتب أكثر من أربع مئة مقامة، لم يبق منها إلا اثنتان وخمسون مقامة. وقد كتب الحريري مقاماته سالكا فيها مسلك الهمذاني، من حيث وجود شخصيتي الراوي الحارث ابن همام والبطل أبو زيد السروجي.

وقد أملى الحريري مقاماته على لسان السروجي وهو من أهل الكدية الذين امتهنوا التسول، وكانت وسيلته في ذلك فصاحة لسانه وسحر بيانه، وهو يظهر في كل المقامات، وغالبا ما تساعده زوجته وولده، وهما يشاكلانه في الخداع والخبث والفصاحة، أما الراوي الحارث بن همام فهو رحالة أَبِيُّ النفس بعيد عن مسالك اللصوص، ولكنه يصاحب أبا زيد ويتعاون معه، لكنه يقلع عن الاحتيال ويتنسك ويتوب توبة نصوحا، ويفارق راويته في المقامة الأخيرة[4].

وتتكون كل مقامة عند الحريري من مقدمة، عرض، خاتمة، أما المقدمة فتدور حول فكرة واحدة، ولكنها ترد في صيغ لغوية مختلفة، تتضمن فكرة المطاردة بين الراوي والبطل، يظهر البطل فجأة وفي أماكن متباعدة قد تكون في المشرق أو في المغرب، والراوي يتابعه ولا يمل، ويصحب ظهور البطل مظهر غريب يشد الانتباه ويثير التشويق، ويحدث الشيء نفسه مع الخاتمة، إذ يبقى القارئ دائما مبهورا.[5] وتدور موضوعات مقامات الحريري حول الاحتيال بطرق شتى، فتارة تأخذ شكلا دينيا وخلقيا كما في المقامة

1- سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي النثر، ص130.

2- المرجع نفسه، ص132.

3-علي محمد السيد خليفة: الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1،2010، ص134.

4- ينظر: سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي، ص251.

5- ينظر: إبراهيم عبد الحميد:الأدب المقارن من منظور الأدب العربي،دار الشرق، لبنان،ص35.

الصنعانية، وتارة شكلا أدبيا وفكاهيا كما في المقامة القطيعية والواسطية، وتارة أخرى شكلا مجونيا كما في المقامة الرحبية.

وتحتوي هذه المقامات على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغر البيان ودرره، ومُلَحِ الأدب ونوادره، فضلا عن الأبيات والأمثال والأحاجي واللطائف والخطب والرسائل والمواعظ[1]. ورغم أن الحريري قلد الهمذاني إلا أنه "تفوق عليه، فخطا بهذا الجنس الأدبي خطوات لم يبلغ فيها شأوه أحد من الذين قلدوه، قبل عصرنا الحديث"[2].

-منامات الوهراني:

الوهراني هو الشيخ ركن الدين محمد بن محرز الوهراني أبو عبد الله نسبة إلى وهران، أديب صناعته الإنشاء كان بارعا في الهزل والسخرية، نشأ بوهران، عاش فترة الصراع على الحكم في المغرب الإسلامي وشهد سقوط دولة المرابطين على أيدي الموحدين، ورحل إلى المشرق في مناسبة حج كعادة أغلب القادمين إلى المشرق وأدى المناسك، دخل دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي، زار بغداد فجالس بها الأدباء والعلماء، وعاد إلى دمشق فاستقر بها، تولى الخطابة بأحد مساجد داريّا، كما زار أيضا القاهرة أيام صلاح الدين الأيوبي والتقى هناك بالقاضي الفاضل عماد الدين الأصفهاني، ثم عاد إلى دمشق وتوفي بداريّا سنة 575هـ[3].

ترك الوهراني عدة مؤلفات منها: منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، حققها إبراهيم شعلان ومحمد نغش، مع مراجعة عبد العزيز الأهواني عام 1968، كتاب رسائل الوهراني ، وكتاب جليس كل ظريف، وهو كتاب يضم مجموعة من المقامات منها المقامة الميافريقية، والمنامة الصقلية، والمنام الكبير، وللوهراني عدة مقامات أشهرها المقامة البغدادية، والمقامة المسجدية، والمقامة الدمشقية، والمقامة الصقلية.

-مناماته:

لقد شهد القرن الرابع للهجرة ظهور لون أدبي نثري جديد وهو فن المقامات الذي نحا فيه مبدعه بديع الزمان الهمذاني(398هـ) منحى قصصيا سرديا، فتركت هذه المقامات أثرا ملحوظا في الكتاب الذين جاؤوا من بعده، ولاسيما في القرنين الخامس والسادس الهجريين، إذ نضجت فيهما بعض الأشكال القصصية وظهرت أشكال سردية جديدة منها فن المنامات الذي يعد لونا أدبيا له طابعه المستقل والمتميز من الألوان

1- ينظر: سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي، ص253.

2- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، ص226.

3-عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض، بيروت، لبنان، ط2، 1982، ص350.

النثرية الأخرى. ولقد نهج الوهراني في مناماته أسلوبا جديدا في المعالجة الأدبية والسرد، فاتخذ من المنام عنصرا مهما في الحديث السردي لذلك عدّ الدارسون والنقاد المنام نصا رمزيا مشبعا بالدلالات والرؤى.

ولما كان المنام الكبير للوهراني نصا يمتزج في الواقع والخيال، والممكن والمستحيل، والوعي واللاوعي، والمرغوب والممنوع، فكانت تجري أحداثه في العالم الآخر المتخيل، فقد اتخذ الكاتب من منامه قناعا اختفى وراءه ليقول ما يريد أن يقول بكل حرية، ويطلق سهام نقده اللاذع على الواقع المزري الذي يعيشه كل ذلك عبر شخصيات ومواقف افتعلها في منامه، ووراء منامه تكمن مواقف الوهراني الجريئة في كشف حقائق الأمور حول الكثير من الحقائق السياسية والاجتماعية والأدبية والفكرية في عصره[1].

–من خصائص المنامات:

– يتميز أسلوب الكاتب في المنامات بالبساطة والعفوية والاسترسال، وفي هذا خالف كتاب عصره الذين يميلون إلى الصنعة والتكلف، والتقيد بالسجع والإيغال في استخدام المحسنات البديعية.

– استعمل الكاتب المنام قناعا لإدانة الكثير من الظواهر الاجتماعية والأخلاقية التي تفشت في عصره.

– الحوار في المنام عنصر رئيسي في بناء المنام، والحوار يهيمن على منامات الوهراني بصيغة السؤال والجواب على مجمل مفاصل أحداث المنام، الشيء الذي سوغ لبعض الباحثين اعتبار منامات الوهراني أنموذجا للمسرح العربي التراثي الساخر.

– يأتي منام الوهراني على شكل أقصوصة سردت بوعي فني خطابي متميز يقدم فيه الأحداث على شكل لوحات فنية متعددة، معتمدا على عنصر الانتقال السريع والمفاجئ بين المشاهد.

1– ينظر: علاء الدين محمد رشيد: دراسة في المنام الكبير للوهراني، مجلة جامعة تكريت للعلوم، مج19، ع7، تموز2012، ص326.